خليفة محمد التليسي

الشابي وجبران

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الشابي وجبران

خليفة محمد التليسي

الشّابي وجبران

**

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى فبراير ١٩٥٧
الطبعة الثانية فبراير ١٩٦٧
الطبعة الثالثة مارس ١٩٧٤

الإهــداء

الى المناضلين من أجل غد أفضل والعاملين على تحرير الشخصية العربية من رواسب المـــاضي وأغلال الحاضر التي تقيد انطلاقتها الحضارية .

مقدمة

لماذا أحببت الشابي ؟:

سؤال يتكفل بالرد عليه هـذا الكتاب ، ذلك لأن ما أحببته من الشابي ، كان كثيراً متنوعاً ، لا يقف بي عند حدود الاعجاب البسيط العابر . فهو لم يكن من الشخصيات التي تغنيك منها الوقفة العاجلة . ولكنه شخصية غنية ، سخية ، اذا عدت اليها مرة بعد اخرى فلا بد ان تخرج من مصاحبتها بزاد جديد ، وثروة نفسية . وأعظم ما أعجبني في هذا الشاعر الكبير ، صحة فهمه لرسالة الشعر . وما أقل الأصوات التي تنطلق من الأعماق ، كما ينطلق صوته الخافت الهامس في قصائد الحب ، والعاصف الثائر في قصائد الوطنية . انه صوت عميق ، بقية من تلك القلة الخالدة من الشعراء والفنانين الذين يغمسون أقلامهم وريشهم في الدماء ، ويرسمون بدم قلوبهم قبل ان يرسموا بالألفاظ والألوان. وتلك مزية لم تنلها

الا القلة التي اصطفاها الله لابداع رسالة الفن، ورد الناس الى الحياة الفنّية الرفيعة التي تجد فيها الشخصية الانسانية امتدادها .

اول عهدي بهذا الغرّيد ، ذلك اليوم الذي وقعت فيه على قصيدته « صلوات في هيكل الحب » ، فتلوتها في خشوع العابد ورددتها في ضراعة الزاهد المتبتل ، ثم وجدتني أحفظها ماخوذاً بسحر معانيها ، وروعة تعابيرها ، ورقة موسيقاها ، وبراعة التلوين والتصوير فيها . ومنذ ذلك اليوم أخذت أبحث عن الشابي . وطفقت أجمع كل ما يصل الى يدي من قصائده حتى تكونت لدي مجموعة من شعره ، كنت حريصاً عليها حرص البخيل على كنوزه، لأنني وجدت فيها نغمة جديدة لم آلفها فيما كنت أقرأ من شعر . وجدت الوضوح ، والعمق ، والبساطة !

وقد قمت في سنة ١٩٥٠ بإلقاء محاضرة عنه، في قاعة المعارف في موسم محاضرات رابطة المعلمين، فكان لي بذلك شرف السبق الى تعريف مواطني بهذا الشاعر العظيم ، الذي لم ينشر عنه في ذلك الوقت أية دراسة ، وكان اعتمادي في تلك المحاضرة على استخلاص الحقائق من شعره ودراسته في إطار الحركة الشعرية العامة في العالم العربي. وقد عدت الى هذه المحاضرة في العام الماضي، حين وجدت إلحاحاً من بعض الأصدقاء في نشرها، فالفيتني راضياً عن الهيكل العام الذي صيغت فيه ، ولكنني رأيت ان أتوسع في دراسة هذه العناصر مستعيناً في ذلك بما صدر من دراسات عن هذا الشاعر، وأن أنشرها مفصلة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية ، وقد نشرت بعض فصول هذا الكتاب في صحف ومجلات طرابلس الغرب ، على ان

أغلب مقالات هذا الكتاب لم تنشر، وليس في هـذه الدراسة شيء لم تسبق الاشارة اليه في تلك المحاضرة على نحو موجز .

هذه محاولة .

ولست أطمع وأنا أدفع بها الى المطبعة في ان تكون وافية بما أردت ، ولم يطف بذهني انني قد جئت فيها بشيء مذكور . حسبي منها تحيـــة متواضعة لهذا الشاعر الذي أحببت ..

طرابلس الغرب ١٥ ديسمبر ١٩٥٥

خليفة محمد التليسي

بَين القَديم والجَديد

انهـــار الادب العربي بانهيار القومية العربية ، وضعف بضعف شخصيتها التي اصطلحت عليها ظروف الانحطاط ، والسيطرة التركية ، ثم الاستعمار الغربي الذي أثار في الامة العربية روح التحدي ؛ فاستيقظت بعد غفلة ، وانتبهت بعد جمود . وهبت تسير في موكب الحياة الصاعدة ، تنشد الحرية والاستقلال .

وكان من نتـــائج الصراع ، بين الشخصية العربية ، وبين عوامل الانحطاط المتعددة التي تهددها بالذوبان والتفسخ ، ان تميزت لنـا شخصية عربية حائرة بين اتجاهين : اتجاه بالعودة الى القـــديم العريق ، كوسيلة للمحافظة على عناصر الشخصية العربيـة ، وجوهرها الصحيح . واتجـاه نحو الغرب، والتزود بما لديه من معرفة، واتخاذها أداة للمشاركة الصحيحة في الحضارة الانسانية ، وإيقاظ الامة العربية وبعثها .

وتمثل هذه الدعوة ، في الميدان الادبي ، المدارس الادبية الجديدة التي تزعمها جماعة من المثقفين الذين اتصلوا بحضارة اوروبا ، فراعهم مـا نحن عليه من تاخر وجمود . ويتمثل الاتجاه الثـاني في المدرسة التقليدية التي كانت تنفر من الحضارة الاوروبية ، مخـافة الذوبان فيها ، فلا يبقى لهـا أثر من البناء القومي الذي تحرص عليه ؛ وتتعدد صور هذين الاتجاهين ،

بين متمرّد منكر للأدب العربي ومعـانيه ، ومكانه من الوجود ، وبين معتدل ما يزال يجد فيه بعض معاني الروح العربية ، وزاداً انسانياً لا يخلو من ومضات رائعة ، تخاطب الانسان في أفقه الشامل .

وكان لا بد من صراع بين هـذين المذهبين . ذلك الصراع الذي تمثّل في الدعوة الجريئة التي نادى بهـا أنصار المدرسة الحديثة ، وفي النقد الذي وجّـهوه الى اتباع المدرسة القديمة وانصارها .كانوا مؤمنين في دعوتهم هذه بان لا سبيل الى بعث الشعر، الا بخلق الشعر الحي ، الذي يعبّـر عن روح العصر ، ويصوّر الحياة . وهو في ذلك يجب ان يكون مشدوداً الى الشعر العربي القديم بالرباط الذي تقضي به طبيعة الحياة المتطورة ، وليس حتماً ان يكون صورة منه ، ولكنه يجب ان يكون متصلاً بعصره ، أقوى ما يكون الاتصال وأوضحه ، ومصوّراً للحياة الحديثة، ولما يجري في آفاقها من معان جديدة .

وكانت بداية هذه النهضة في الشام ، وقد بدت ملامحها الاولى في شعر مطران الذي كان حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ الشعر العربي[١] . وقد ترسّم خطوات مطران ، شعراء في الشرق وانبثقت عن مدرسته المدرسة المهجرية ، التي مضت بالتجديد الى أقصـاه ، يضاهرها في الشرق جماعة الديوان وهم من الأدباء الذين اطلعوا على الادب الغربي ، وحـاربوا القـــديم الذي كان يربط حافظ وشوقي . اذ كانوا يرون ان الشعر قيمة انسانية ، وان الشاعر انسان ممتـاز ، وان امتيازه يجب ان يكون مـاثلاً

(١) مطران ـ لاسماعيل أدهم .

في تعبيره عن ذاته وتعميقه لحياة الآخرين ومضاعفتها باطلاعهم على صور رائعة من تجربة انسان فنان . وهم يلتقون في ذلك ، مع أدباء المهجر الذين كانوا يدعون الى ان يتجه الادب الى مخـــاطبة الانسان ، فلا يشغله عنه شاغل من الحوادث التـافهة . وكانوا ينـادون بوحدة القصيدة ووحدة موضوعها ويلحون على التحرر من الصياغة التقليدية البـائدة ، والعمل على خلق صياغة جديدة تزيد من ثروة اللغة، وتجدد دارس الشعر العربي، ويسعون الى ان يتخلص الشعر من الطبقـــات التي كان يعيش عليها ، ويعتمد على رفدها ، ويتغنى بأمجادها .

كان الشاعر ، يبحث دائماً ، عن رجل يستريح الى ظل جنـــاحه . فكانت رسالته ضائعـة ، وشخصيته مهدورة ، في غمرة المدح السخيف البليـد الذي لا يصدر عن عاطفة صادقة ، وانمـا عن حرص على مصلحة زائلة . ومن اليسير ان تلاحظ ان شعراء هذه الفترة ، الا القليل منهم، لا يحملون رسالة واعية صحيحة يعيشون لها ويتخذون منها قضية حيـاة ، ولكنهم كانوا يسيرون في ركاب زعماء معينين يوالون من والاهم ويعادون من عاداهم . هكذا فعل شوقي عنـــدما كان يسير في ركاب الخديوي حتى امتنع عن رثاء صديقه مصطفى كامل مدة طويلة . وهكذا فعـل حافظ عند توديع كرومر الذي كان يجامله لأنه كان من أصدقاء الشيخ محمـــد عبده. ولا شك في ان هذين الشاعرين قد شاركا في التجديد، ولكنه التجديد الذي يصيب الشكل ، ويقف فلا يتعـداه الى المضمون . ذلك لأن رسالة الشعر لم تكن واضحة في نفسيهما، ووضوحها الآن في أذهان الشباب الواعي

الذي شعر بذاتيته ، وتعرّف من خلالها ، على الواقع العام لأمته، فانطلق من ذلك القيد الذي كان يعيش فيه، الى الاتصال بالحياة في أوسع معانيها ، مصوراً الواقع الاجتماعي ، ومعبراً عن البؤس الانساني ، داعياً الى اليقظة والتحرر، منادياً بالذاتية الواضحة ، وقيام الشاعرية على الاحساس الفني، قبل قيامها على الشعوذة ، والبهرج اللفظي ، والتلاعب بالمعاني الاخبارية التقريرية ، التي لا حظّ لها من اشراق الفن ، والتي لا تصلح لغير المحاضر وتقارير الصحافة .

ولما اصبحت للشاعر رسالة، ونزلت من نفسه منزلة القضية التي يعيش من أجلها ، اصبح من اليسير ، ان تحدد مكانة كل شاعر ، ومدى صلته بالحياة او انفصاله عنها . وكانت الدعوة متجهة الى الاتصال بالحياة، ولكن بشكل جديد غير الشكل الذي تناوله شوقي وحافظ، فكان لنا من شعرهما الوثائق التاريخية ، اكثر من الوثائق الفنية التي تدل على أصالة في الروح ، وسموّ في الذوق ، وشاعرية في الامة . وقد نتج ذلك عن طغيان البيئة على الشاعر طغياناً لم تقم معه للشاعر أية شخصية . وكان الشباب ينقمون على هذا الاتجاه ، متاثرين في ذلك بآراء المهجريين ومدرسة (الديوان) . ولا غرابة في ان نرى الشابي ثائراً على التعريف الذي يجعل من الشاعر مؤرخاً لعصره وعاداته وأخلاقه ، مؤمناً بأن الشاعرية الحقة وقف على (أولئك الشعراء العالمين الذين يرتفعون بأرواحهم الى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة ، متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة الا في أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكون ومثل الحياة العليا ،

وأولئك الموهوبين الذين يسبقون عصرهم ، فيغنون أشهى أغاني الجمال وأعذب أناشيد القلب البشري لأجيال لم تخلق بعد ، وأولئك الذين لا يصورون عادات العصر المتغيرة المتحولة ، بل عادات الحياة الخالدة على الدهر ، ولا يصفون أحاديث الوعاظ والمتكلمين والمتفلسفين ، بل أحاديث نفس الانسان التائهة في بيداء الزمان ، ولا يعلنون اسرار القصور والمجالس ، بل اسرار الأزل والأبد .

هكذا قام الشعر على الصدق في التجربة الشعرية والنظر الى الشخصية ككيان بارز يجب ألا يضيع في التقليد . واعتمد التجديد على ركنين : ثورة على المضمون ، وثورة على الصياغة . اما المضمون فقد تحوّل من التغني بامجاد الطبقات الى تصوير الحياة والتعبير عن العواطف الأصيلة الخالدة في الانسان . دون ان يسعى في ذلك للحصول على مكسب ، او الجري وراء غاية خسيسة ، حسبه ان يعبر عن عواطفه لا يروم من ورائها شهرة ولا نوالاً . وقد تفتحت عبقرية الشابي على هذه الدعوات وهذا الصراع بين القديم والجديد ، فوجدت صدى في نفسه ، وظهرت في شعره نابضة بالحرارة والقوة والاخلاص .

لا أنظم الشعر أبغي به رضاء أميرِ
بمدحة او رثاء تهدى لرب السرير
حسبي اذا قلت شعراً ان يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أبغي به اقتناص نوالِ
الشعر إن لم يكن في جماله ذا جلال

فانمـــا هو طيف يسعى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريداً في ذلّةٍ واعـتزال

وقد ابتدأ الشابي حياته الشعرية مقلداً الشعر القديم، كعادة كل ناشيء، ولكنه سرعان ما تمرّد على هذا الادب ، وحمل معولاً هوى به على جذوعه الخـائرة ، مركّزاً آراءه ومذهبه الادبي في محاضرة ، أثارت ضجة كبرى في الأوساط الادبية حينذاك . وهي (الخيال الشعري عند العرب) . وكل دراسة تتجاهل هذه المحاضرة مقضيٌّ عليها بالفشل، ذلك لأن الشابي ضمّنها آراءه في الشعر العربي القديم ، واتخذ منها منهاجاً يسير عليه فيما أنتج من الشعر بعـد ذلك . وهي عندي مفتـاح تجربته الشعرية ، وتحديد واضح لمعالمها . ومن اليسير جداً ان تطبق هـــذه الآراء على شعره ، فستجدها ظاهرة ماثلة لا تحتاج الى جهد او عناء في استخراجها . وهذه ميزة قلمـا تسلم للكثيرين . وبذلك استطاع الشابي ان يخلص لمذهبه اخلاصاً رائعاً ، وان يظل أميناً حريصاً على هـذه المبادىء التي تشرّبها وتسرّبت اليه من مطالعاته . والعجيب حقاً ، ان بعض المنادين بالتجديد في الشرق، والذين تأثر الشابي بدعوتهم ، لم يسلموا في انتـــاجهم من الوقوع فيما أخذوه على المدرسة القديمة، اذ عادوا الى النظم على الطريقة القديمة، صياغة ومضموناً . أما الشابي فقد ظل يعيش لهذه القضية الادبية ، ولم يتحول عنها رغم ما أصابه من جرّائها من عنت وجور .

كان الشابي يعمل على بناء حياة جديدة ، في صورها المتعددة، الادبية منها والاجتماعية ، فلم تطق الرجعية ، المضيّ معه في هذا التمرد الخالق ،

ولم ترضَ لنفسها التخلي عن كسلها القاتل . فسعت الى محاربته ، متهمة اياه بالدعوة الى (أدب الاغراب ، ومحاربة أدب الاعراب) . ولم يكن صحيحاً ما اتهم به هذا الشاعر العظيم ، بل الصحيح ، انه سئم العيش في متاحف الجثث المحنطة ، فدعا الى التطور ، والسير مع الحياة التي تكره المتقاعدين المتخاذلين ، الذين يعيشون في مقابر الأجداد . وكان في دعوته هذه ، قاسياً شديداً، وكأنما كان يدرك ان هذا الداء الخبيث، الذي امتدت جذوره الى الكيان العربي ، لا سبيل الى التخلص منه ، الا بالاجهاز عليه في قسوة لا تعرف الاشفاق على المريض . ذلك طريق السلامة. وقد اندفع مع ثورة الشاب الذي وعى مفاهيم جديدة للحياة ، وحمل معنى جديداً للأدب ، فلم يرحم الضعف ، ولم يهادن الاستسلام .

وليس في هذه المحاضرة جديد مكتشف ، فقد سبق الشابي الى الملاحظات التي أخذها على الادب العربي ، باحثون من الشرق ، كالعقاد ونعيمة ، ومن الغرب ، كالمستشرقين ، ولكن حرارة الايمان ، وقوة المنطق ، والتمثل الصحيح لما يقرأ ، والتطبيق المتاز الذي يدل على اطلاع واسع ، والاسلوب الشعري الرفاف . هذه كلها صفات جعلت منها رائعة أدبية صادقة .

على اننا نلاحظ ان الشابي ، في هذه المحاضرة ، لم ينجُ مما أخذه على الادب العربي، وخاصة في وصف المزاج العربي بانه مزاج خطابي ناري، يَكتفي بالنظرة العاجلة، والالمامة القصيرة. وأوضح شيء في هذه المحاضرة روحها الخطابية النارية المتحاملة ، والظالمة احياناً ، وهي جديرة ان

تُناقَش مناقشة دقيقة ، ولكن الفصل القيم، الذي عقده الاستاذ الحليوي في كتابه (مع الشابي) ، أغنانا عن ذلك ، ونحن ننصح بالرجوع اليه لمن أراد مزيداً من الاطلاع على آراء الشابي في الادب العربي، والأخطاء التي أخذها عليه أصدقاؤه وخصومه .

وينعقد الاجماع على ان الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية، والطابع الذي تركته هذه المدرسة في أدب الشابي ، لا سبيل الى إنكاره وإغفاله وتجاهله . وليس يعيب الشابي ان يتتلمذ ، في بداية نشأته، على الآخرين، وانما يعيبه حقاً ، ان يظل عبداً للتقليد . وتلك صفة ترفّع عليها ، فما كاد يبصر طريقه ، حتى استوى له في الشعر مذهب قائم على شخصية مستقلة ، تمتاز بمقوماتها الخاصة ، ومنهجها المدروس . ولا يعيبك ان تعثر على ذلك ، في فهمه للشعر ورسالة الشاعر ؛ فقد كان الشابي ثائراً على حصر الشعر في الدائرة الضيقة التي كان يعيش فيها شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الأقطار العربية،وكان متأثراً في ذلك بالادب المهجري،وبنقدات العقاد وميخائيل نعيمة ، التي وجّهته الى الاستفادة من أخطاء مدرسة شوقي وحافظ . فلتقرأ كيف يحدّد مفهوم الشاعر في هذه الفقرات :

« الشعر ، وهل يُسأل عن الشعر ؟ ان الشعر هو الحياة نفسها ، في حسنها ودمامتها ، في صمتها ، وفي هدوئها وثورتها في نومها ويقظتها ، وفي كل صورة من صورها وكل لون من ألوانها . الشعر ، وهل يسأل عن الشعر ؟ ان الشعر ، يا صاحبي ، هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحار ، وفي بسمة الوردة الحائرة يدمدم فوقها النحل ، ويرفرف

حواليها الفراش ، وفي النغمة المغرّدة يرسلها الطائر في الفضـــاء ، وفي وسوسة الجدول الحـالم المترنم بين الحقول ، وفي دمدمة النهر المتدفق نحو البحـار ، وفي مطلع الشمس وخفوق النجم ، وفي كل مـا تراه وتسمعه وتكرهه وتحبه وتأمله وتخشاه . فهل بعد ذلك تسائلني عن الشعر » ؟

ويحدده ميخائيل نعيمة ، في كتابه « الغربال » ، بهذه العبارات :

« الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على الباطل . هو ترنيمة البلبل ونوح الورقاء، وخرير الجدول وقصف الرعد . هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى ، وتورُّد وجنـة العذراء وتجعُّـد وجه الشيخ . هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر لذة التمتع بالحياة ، والرعشة امام وجه الموت. هو الحب والبغض والنعيم والشقاء، هو صرخة البائس وقهقهة السكران، ولهفة الضعيف وعجب القوي. الشعر ميل جارف، وحنين دائم الى ارض لم نعرفها ولن نعرفها . هو انجذاب أبدي لمعانقة الكون بأسره ، والاتحاد مع كل ما في الكون من جمـاد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية التي تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية . وبالاجمـــال ، فان الشعر هو الحياة : باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، ومولولة ومهللة ، وشاكية ومسبحة ، ومقبلة ومدبرة » .

ولا يعسر على القارىء ان يتبين مدى هذا التأثير ، كما لا يعسر عليه ان يتبين تأثير العقاد في المفاهيم الشعرية . فلقد كان يكتب في ذلك الوقت

مقالات موجّهة الى شوقي في تصحيح معنى الشعر[1] .

وقد كان العقاد يؤمن بامتياز الشاعر الذي يتجلى في تعميقه للتجربة الانسانية . وكان الشابي يقول في طريقة التعرّف على الشاعر الانساني : « لكي تدرك هاته الحقيقة، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحسّ بتيارات الوجود اكثر مما تحس وتدرك من معانيه وأصواته، اكثر مما ألفتَ ان تدرك، وينسيك وجودك الانساني لحظة، لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك ؟ أقول : انظر ، اذا كان من هذا النوع ، فاعلم انك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، وإلا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك » .

كان يأخذ على القصيدة العربية تركيزها للتجربة الشعورية وإفراغها في قالب من الحكمة ، يعقلها ويفقدها حرارة الانفعال ، متأثراً في ذلك بآراء شعراء المدرسة الحديثة ، ومنهم ميخائيل نعيمة الذي يقول في الغربال : « وكم هم الشعراء الذين يستعيضون عن وصف عاطفة بذكر نتائجها الخارجية » . وهذا الحكم يعرضه الشابي عرضاً فنياً موفقاً في هذه الكلمات : « ان القصيدة العربية كحديقة الحيوانات فيها من كل لون وصنف ، والشاعر العربي ، اذا ما أراد ان يبسط فكرة من أفكاره ، ألقاها في بيت واحد او في جملة واحدة ، اذا استطاع ، اما الشاعر الغربي

---

(١) كان الشابي يعجب بالعقاد اعجاباً شديداً ، ويؤمن ايماناً عميقاً بقدرته الادبية ، وقد كان له تأثير واضح في صياغة أحكامه عن التجديد الشعري ، كما كان يتعصب له ضد الرافعي .

فانه يعرض امام النفس ، الصورة او الاسباب والعوامل التي حرّكت في نفسه ذلك الرأي ، بصورة شعرية تحليلية ، لا يلقيها كما يُلقى الحجر الصلد عارياً جامداً ، او كما يلقي الأساتيذ تعاليمهم ، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال[1] » . ولا نعدم أمثلة اخرى للتأثير القوي الذي طُبع به الادب المهجري الشابي. ولقد كان هذا الادب نسمة عذبة هبَّت على الشرق ، فاندفع كثير من شباب الشعر في الشرق الى تقليـــده ذلك التقليد الذي كانت لنا من نتائجه هذه النهضة .

وكانت تونس كغيرها من البلدان العربية ، التي تضافرت عليها عوامل الانحطاط والاستعمار .

كان الشعر الشائع هو ذلك الموصول الجذور بالمدرسة القـــديمة ، في أغراضها وتعـابيرها واعتمادها على التزويق في الشعور ، فكان الشعراء طبعـة مكررة . لا يتفرد شاعر منهم بمزية ، ولا يُعرف بخاصة من الخصائص ، ولا يُذكَر بمذهب من المذاهب في الحيـاة ، او بموقف من المواقف الاجتماعية . حفـلة من الحفلات ، او سهرة من السهرات كافيـة لأن تهزّهم فتبعث فيهم أصواتاً خامدة خافتة كأنهـــا تنبعث من وراء القبور . أما الحيـاة في محيطها العـام الشامل ، أما الفهم الصحيح لرسالة الشعر ، ومكانة الشاعر ، وتقديس الفن وعبادته ، فذلك شيء ظلّ بعيداً عن فهم أولئك السائرين في قافلة الأجيال القديمة ، التي تضرب على غير هدى ، في ظلمـــات الأمس البعيد . ولم تكن تونس فقيرة الى المزاج

(١) الخيال الشعري — للشابي .

الشاعر ، ولكنها كانت فقيرة الى الشعر الصحيح ، حتى اذا جاء هـــذا الغرّيد أغناها ورفع ذكرها في كل مكان، وجعل من روحها تياراً متدفقاً هادراً في محيط الادب العربي الحديث .

ولم يكن الشعر في تونس مؤهلاً للمشاركة الواعية الفعالة ، لأن أغلب الشعراء كانوا يعيشون على التقليد ، حتى اذا انطلق هـــذا الغرّيد يحمل خصائص الذاتيـة المتفردة الأصيلة ، رأوا في نبوغه خطراً على مجـدهم وشهرتهم ، فتنادوا لكفاحه ومحاربته .

. وكانت الحركة الادبية الجديدة متمثلة في شبيبة واعية ، اطلعت على الادب الغربي ، وتابعت نهضـة الادب العربي الحديث . وكانت تلتهم في نهم شديد ، كل ما يصل اليها من ثقافات الغرب والشرق ، وتجد في نفسها استجابة الى الدعوات القـائمة في الشرق العربي ، منادية بالتجديد ، وكان حتماً ان تجد هـــذه الدعوات طريقها الى المجتمع المغربي ، فهو جزء لا يتجزأ من الكيان العربي، فاعتنقها الشباب وكانوا من دعاتها وأنصارها . فقـد راعهم الخمود الادبي ، وآلمهم ألا يكون لبلادهم مشاركة واعيـة في الحاضر ، كما كانت لهـــا في الماضي ، فاندفعوا في قوة وعزم الى تصحيح المفاهيم الادبية ، وكانت مهمة عسيرة، فليس أعسر من النهوض بالتجديد. ومحاولة اصلاح الادب ، معناها اصلاح الأمة كما يقول الاستاذ العقـــاد ، نلمس ذلك فيما وُجِّـه من نقدات صائبـة الى فنون الادب ، ويهمنا منها ، بنوع خـاص ، الشعر الذي كان يشكو تخلّفاً في الروح ، يبعـد به عن مجاراة التيار العربي في الشرق .

وفي هذا يقول الاستاذ الحليوي :

« شعراؤنا كثيرون لا جرم ، لكن معظم شعرهم مشكوك في قيمته ، متناقش في نفعه . وليس يعسر على النقد ان يطلع النـــاس على زيفه ، ويبرهن عن خلوه ـ الا القليل ـ من الاحساس والشعور ، وإقفـاره من العاطفة والخيال ، وليس يعيبه ان يتركه ـ بعـــد عرضه على المحكّ ـ كُـوَماً من الألفاظ والأوزان ، وهشيماً من التقاطيـع والتفعيلات .

علم الله ، اننا لا زلنا بعداء عن الإدب الحي القوي ، الذي يصدر من القلب ، فيدخـــل الى القلب ، ويمتزج باللحم والدم ، ويهز النفس هزاً ويدكّها . وها نحن أولاء تشتاق قلوبنـا الشعر الصادق الحي ، فلا نظفر به الا في دواوين معلومة للشعراء الأقدمين ، وها نحن أولاء تتوق نفوسنا الى الشعر الوطني الحمـاسي ، فنـ تعبره من شعراء الشرق الذين خـاضوا بحره ، وصارعوا موجه المتلاطم ، حين رماهم القدر بالنكبات والأرزاء ، وساق اليهم عادي الدهر ، الأحداث الهـائلة والخطوب الجسام ، فقاوموا المحتلين ، وتغنـّوا بالحرية ، وحلموا بالوحدة العربية »[١] .

ولعل أفدح ما كان يشكوه الشعر حينذاك ، ضعف الايمان به كقضية فنية ، يستحق الحياة من أجلها ، والتفرغ لها كما يتفرغ العـابد المتصوّف لعبادة ربه . تلك هي طريق النبوغ ، وفي هذا يقول الشابي :

« .. الحقيقة انهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنهم ، حيـاة رفيعة سامية ، والاندماج فيه بكل مـا لهم من روح وحسّ وتفكير وخيـال ،

---

(١) الشابي ـ كتاب البعث .

حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره . وما برحوا ينظرون اليه كنافلة من نوافل النفس، لا ضرورة من ضروراتها ، ولهو ساذج يتسلى بـه المرء في سآمة الوحدة وملل الفراغ ، لاجد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة ، ومن ثم كانوا لا يمنحونه ما يجب له من التقدير والاحترام، ولا يتحرجون ان يسفوا به الى صغائر الاشياء وسخافاتها»[١] .

وأكاد أجزم ان العربية في شعرها الحديث لم تعرف شاعراً اتخـذ من الشعر قضية يعيش من أجلها كما اتخذها الشابي، وذلك سر من أعظم أسرار الشهرة التي يتمتع بها أدبه ، والتي تمهد له مكاناً في كل قلب . قد كان صادق الشعور ، صادق التعبير عما يختلج في نفسه . وكان أميناً في حمـل الرسالة الادبية الفنية الرفيعة حتى تضخّـم ايمانه بها . « وكادت العواطف عنـده تصبح مرضاً ناهشاً ، فعاش الشاعر يلهث وأتعبه الشعر حتى قتله . ان الشعر كان هو السل الاكبر في حياة هذا الشاعر المشتعل ، ومن أجله عاش يتعذب بكل جمال يمر به ، وإن كان عذابه لذيذاً »[٢] .

وذلك واضح في كثرة ما ناجى به الشعر الذي أحبه حباً عميقاً .

وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة أهل الخلود .

ويقول من قصيدته « مناجاة » ، التي تكشف عن مقـــدار تقديسه للشعر الذي يتحساه في الصباح لينسى ما تقصى في أمسه المفقود ، ويناجيه

---

(١) كفاح الشابي — للاستاذ كرو « ص ٤٨ » .
(٢) نازك الملائكة — الآداب البيروتية ، يوليو ١٩٥٤ .

في المساء ليلهو بحمياه عن ظلام الوجود ، وليس يهمه ، بعد ان يعبّـر عما في نفسه ، ان يزدري الناس أغانيه :

فيك ما في الوجود، حبَّ بنو الدنيا قصيدي أم لم يحبوا قصيدي
فسواء على الورود أفي الغدرانـ فاحت أم بين نهد وجيـــدِ

شخصية الشابي

عش بالشعور ، وللشعور فانما
دنيـاك كون عواطفٍ وشعورِ
شِيدَتْ على العطف العميق ، وانها
لتجفّ لو شيدت على التفكير
وتظلُّ جامدةَ الجمـال ، كئيبةً
كالهيكل المتهـــدِّم ، المهجور
وتظل جامدة الجمـــال ، كئيبة
كالموت مقفرةٌ بغـــير سرور
لا الحب يرقص فوقها متغنياً
للنـــاس بين جداول وزهور
متورّد الوجنات سكران الخطى
يهتزّ من مرح ، وفرط حبور
متكللاً بالورد ، ينشر للورى
أغصان « ورد اللذة » المنظور
كلا ، ولا الفنُّ الجميل بظاهر
في الكون تحت غمامة من نور

متوشحاً بالسحر ينفخ نايه المشـ
بوب بين خمـــائل وغدير
او يلمس العود المقدس ، واصفاً
للموت ، للأيام ، للديجـور
ما في الحياة من المسرّة ، والأسى
والسحر ، واللذّات ، والتغرير
أبداً ، ولا الأمل المجنح منشد
فيها بصوت الحـــالم المحبور
تلك الأناشيد التي تهب الورى
عزم الشباب ، وغبطةَ العصفور
واجعل شعورك في الطبيعة قائداً
فهو الخبـــير بتيهها المسحور
صَحبَ الحياة صغيرة ومشى بها
بين الجماجم والدم المهـــدور
وعدا بهـا فوق الشواهق باسماً
متغنياً من أعصرٍ ودهور
والعقـــل رغم مشيبه ووقاره
مـا زال في الأيام جد صغير !
يمشي فتقرعه الرياح فينثني
متوجّـعاً ، كالطائر المكسور

ويظل يسأل نفسه متفلسفاً
متنطّعاً في خفـــةٍ وغرورِ
عمـا تحجّبه الكواكب خلفها
من سرّ هـــذا العالم المستور
وهو المهشّم بالعواطف ، يا له
من ساذج متفلسف مغرور
وافتح فؤادك للوجود وخلّه
لليمّ ، للأمواج ، للديجـور
للثلج تنثره الزوابع ، للأسى
للهول ، لـلآلام ، للمقـــدور
واتركه يقتحم العواصف هائمـاً
في أفقهـــا المتلبّد المقرور
ويخوض أحشاء الوجود مقامراً
في ليلهـــا المتهيّب المحذور
حتى تعانقه الحيـــاة ويرتوي
من ثغرهـا المتأجّج المسجور
فتعيش في الدنيا بقلبٍ زاخرٍ
يقظ المشاعر حـــالمٍ مسحور
في نشوةٍ صوفيّةٍ قُدسيّةٍ
هي روح هـذا العـالم المنظور

مظهر التفوق في كل شاعر عظيم ، هو أن تستطيع التعرّف على شخصيته من شعره ، وأن تخرج من قراءتك له، بنموذج تحسّ فيه خفقة الحياة ..

وفي هذا الإطار ، يقف الشابي شاعراً ، متفرّداً بخصائصه الذاتية ، معروفاً بسِماته الخاصة ، واضحاً بعواطفه وأفكاره .. وان قصيدة « فكرة الفنان » لتقدّمه خير تقديم ، وتكشف عن جوهر شخصيته في صدق ، وأمانة ، وحرارة ، فتغني عن عديد من التعريفات التي وُضعت لهذه الشخصية . وهي وحدها المفتاح الذي يُدار للنفاذ الى أعماقها . واحسب انها لوضوحها لا تحتاج الى مفتاح ، شان الشخصيات التي تعييك بتعقيدها ، وتزويرها ، واختفائها وراء الأقنعة .

ولعل وقفة قصيرة ، عند البيئة العامة ، التي كان يعيش فيها شباب العرب ، في بداية هذا العصر، تلقي فكرة عامة عن حقيقة الجو الذي كان يعيش فيه الشابي .

لم يعرف الشباب العربي، في جميع عصوره التاريخية ، أزمة صراع خانقة ، تبلغ من العمق ما تبلغه الازمة التي يمر بها في الوقت الحاضر .

وقد بدأت مظاهر هذه الازمة منذ ان أطلّ الاستعمار بوجهه الكالح على البلدان العربية ، ومنذ ان تغلغل فيها ، ناشراً الفوضى والجهل والعماية . مستغلاً كل ما لها من إمكانات ، استغلالاً ألقى بالشباب الوطني العامل الى الفراغ ، الذي نبّهه الى الخطر الزاحف . فوجد مقاليد أمره تُدار من قبل الأجانب الواغلين ، ولا حيلة له في توجيه سياسة بلاده ،

او العمل على إسعادها . فهو مضروب على يده، محجور عليه العمل في هذا السبيل ، الا اذا كان ما يعمله متمشياً مع سياسة الواغل الدخيل . وإلا فان أقل ما يمكن ان يتعرض اليه ، محاربة قد تنتهي به الى الموت ، او العذاب المميت .

وفي مثل هــذا الجو ، لا تجد الشخصية الانسانية ، مجالاً للامتداد والنمو. والشخصية الانسانية، انما تقوم على دعامتين هما الحرية والمسؤولية.

فلا بد لهذه الحرية من مسؤولية ، تلزمها وتضعها عنـد الحدود التي لا فساد فيها .

الشخصية الحرة المسؤولة هي التي صنعت التاريخ. وشبابنا في مطلع هذا القرن، لم يستطع ان يجد سبيلاً الى هذه الشخصية، لأن العوامل كانت متضافرة على محاربته ، وإعاقة نموه ، ومقاومة أهدافه العـاملة على إسعاد الوطن العربي . ولا غرابة في ان يعمل المستعمر الدخيل ، على قتل هـذه الشخصية ، فتلك طريقته في المحافظة على كيـانه . وانما الغريب حقاً ، ان تجد هذه المحاربة نصيراً من البيئة ، بما كان يحيط بها من تقاليد زائفة وعادات مريضة، تسرّبت اليها من عصور الانحطاط، وأناخت على الوطن العربي ، حتى جعلت حياة الشباب ظلمة حالكة .

تلك ، هي الحقــائق المُرَّة ، التي انتبه لهـا شباب العصر . ولما كانت الحياة ، التي تتكامل فيها الشخصية الانسانية ، محجورة عليه ، من المستعمر الذي استخلص خير مـا في البلاد العربية ، محجورة عليه من البيئة الاجتماعية التي تغلّ يديه ، ورجليه ، وتلقيه الى اليأس القـاتل ،

يجالد ويصارع . لم يجد ما يهوّن على نفسه هذه الرزايا والخطوب ، الا ان يعيش في عالم من الأحلام والأوهام ، في عالم صنعه الخيال : ذلك المارد الجبار، الذي يسعف الانسان كلما انسدّت امامه الطرق وأغلقت الابواب.

ووُجد هذا الخيال، ووُجدت معه الانطوائية التي أخذت تحتل من قلوب الشباب الواعي أسمى مكان ، جاعلة شعارها التعلق بالرومانسية . فكان لنا من ذلك هذا المزاج الحزين القاتم المتشائم، في كل ما أنتج الشباب حينذاك .

كان الصوت الباكي الحزين ، أحبّ الأصوات الى القلوب، لأنه يحمل في حزنه وبؤسه ، صورة الحياة التي يحياها الناس ، ويعصر من ذوب قلوبهم ، قطرات فيها الحسرة ، والأسى والألم .

وجد الشباب ملجأً في هذه الرومانسية، فاقبلوا عليها إقبال الظامىء على الشراب العذب ، فقد كانت تحقق لهم ما تعذّر عليهم تحقيقه في عالم الواقع . تحقق لهم هذا العالم المثالي ، الشاعري ، بما فيه من ألوان الحياة الممتعة العميقة، تلك الحياة التي ضاعت منهم، في غمرة الواقع ، المتعفن، التي كانت تعيش فيه بيئاتهم .

وقد ساعد على تمكين هذا المذهب في النفوس ، اعترافه بالشخصية الانسانية ، حتى ليرى كثير من الباحثين ، انه في اكتشافه هذا لا يقلّ أثراً عن الاكتشافات العلمية التي غيّرت معالم التاريخ .

ولكن هذه الشخصية ، ما عرفت ذاتها ، وحقيقتها ، ومكانها من الإطار الاجتماعي ، الا لكي تستقبل الآلام والأحزان ، لأنها لم تكن قادرة

على ان تغيّر شيئاً من الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه البيئات العربية ، وكل سلاحها قطرات من الدمع ، تسكبها على هـــذا الكيان المريض ، وتأوّهات مفجعة ، ترسلها على هذه الأمة التي تعاورتها المحن ، وقضت على منابع الحياة فيها ، فنضبت بعد تدفّق، وأجدبت بعد خصب ، وأقفرت من الامكانات الرائعة ، بعـــدما كانت في منزلة تهابهـا جميع العناصر المعادية . والشباب في تلك الفترة ، لم يكن قادراً على غير التحليق في العوالم الرفيعة التي يعود منها ، وكله يأس وتشاؤم . وأغلى أمانيه ان تمتد لها يد باطشة تحوّلهـــا في لحظات الى بيئة فاضلة ، زاخرة بإمكانات الخلق والابداع .

لقد ثار كثير من الكتّـاب ، على هذا اللون من التشاؤم الذي كان شائعاً في البلدان العربية ، مؤمنين بأن مثل هذا الاحساس لا يمكن ان يساعد على البعث والنهوض.انه أخلق بالنائحات النادبات منه بالروّاد الذين يتصدّون للزعامة ويقفون للريادة . وكان لهم في هذا الرأي بعض الحق ، وليس كل الحق ، لأنه يغفل جانباً هاماً ، حين يردّ المسؤولية ، في هذا المزاج القـاتم الحزين ، الى الخالقين المبدعين ، ويغفل البيئة التي ضنت عليهم بالتحرر ، وبخلت عليهم بالميدان الذي تتحقق فيه معاني الشخصية العاملة ، المنتجة . ويلخص جبران هذه المرحلة خير تلخيص ، عنـدما يردّ على ناقديه الذين يلومونه على التشاؤم الذي يسري في كلماته :

« إن كان هناك من يريد ان يبدل نوحي بالضحك، ويحوّل اشمئزازي الى الانعطاف ، وتطرّفي الى الاعتـدال ، فعليه ان يُريني بين الشرقيين

حاكماً عادلاً ، ومشترعاً مستقيماً ، ورئيس دين يعمل بما يعلم ، وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه » .

هذه هي بعض العوامل ، التي صنعت كآبة الأدباء وتشاؤمهم ، على انها لم تكن كآبة خالصة، فقد كان انتاجهم يتارجح بين الاستسلام الباكي، والتمرّد العنيف ، إذ أدرك بعضهم ، ان البكاء والحزن والعويل ، أسلحة لا تجدي، في تحقيق الواقع المنشود ، فما كانت الحياة تستسيغ النوح والبكاء ، وهي التي تمجّد السائرين في موكب المستقبل الباسم ، الطامحين الى التشييد والبناء .

وتدفّق التيار ، ليطلع على الناس بتمرّد ينتهي بالشخصية الانسانية الى أقصى آمادها ، حين يجعلها كل شيء، وما عداها باطل وقبض الريح ، فالفرد الذي ضاع في سياسة التقاليد ، والانسان الذي ذاب في غمرة العبودية التي يفرضها المجتمع ، لم يجد مناصاً من الاقبال على هذا التمرد، لكي يستردّ ، وينتزع ، من بيئته ، كل ما ضنت به من ألوان الحرية ، العاملة على خلق الانسان الكامل، آلمه ان يظلّ أسيراً للتقاليد والمجتمع ، وحزّ في نفسه ان تكيّف هذه التقاليد مصيره، وتكيّف حياته على النحو الذي تريد ، ولو كان ذلك لا يتلاءم مع استعداداته ، ولا مع قوانين العصر التي تضع الانسان في المكان الاول ، وتحتفل بشخصيته ، على انها أثمن ما في الوجود .

وكان الايمان بهذا المذهب نوعاً من ردّ الفعل على المذاهب التي شاعت

في الشرق ، والتي كانت تدفع الانسان الى الرضى بجميع ألوان الجور والاستعباد ، على انها قدر مقدَّر له .

فاذا تمرَّد المتمرّد ، كان الردّ الذي يواجهه كل حركاته : ذلك حكم القدَر . وما كان القدر ليرضى للانسان ان يظلّ أسيراً للمصائر البائسة التعيسة، وما ألقته السماء الى هذه الارض، ليعيش صوَر البؤس والعبودية، ولكنها أرادت له ان يحقق كمال انسانيته ، في تحقيقه لكمال حريته ومسؤوليته .

وفي هذا الاطار يجب ان نلتمس آخر مراحل التطور الفكري عند الشابي ، ذلك التطور الذي اكتملت صورته في قصيدة « ارادة الحياة » ، بما تحمل من معاني التمرد والطموح والدعوة الى الحياة .

وقد تفتحت عبقرية الشابي ، في بداية هذا العصر ، فوجدت في الرومانسية الشائعة في كتابات الكتّاب حينذاك، تحقيقاً لأحلامها وآمالها. وكان كل شيء في الجو الادبي ، مساعداً على تمكين هذا المزاج الرومانسي فيه . وكان هذا المزاج ، الذي ظهر في شعره ، هو الطابع المميز لشباب ذلك العصر ، وهو سر الذيوع ، والشهرة التي كان يكسبها كل أديب ، او شاعر او فنان . وقد كانت قراءاته كلها من النوع الرومانسي الذي أنتجه روّاد هذا المذهب في الغرب ، ومنهم : جيته ولامارتين ، او رواده في الشرق كجبران . وكانت البيئة التي يعيش فيها ممهدة لهذا المذهب ، بما كانت تفرضه على الفرد من قيود اجتماعية ودينية وسياسية .

وعند السياسة يجب ان نقف لنقرأ هذه الأسطر ، التي تبين لنا حقيقة

الجو الذي كان يعيش فيه هـــذا الشاعر الغرّيد . ذلك الجو الملغم الذي أتلفت فيه قوى الاستعمار، كل معاني الحرية، وأهدرت الكرامة الشخصية بما كانت تسنّه، من قوانين جائرة ظالمة. فقد أصدرت سنة ١٩٢٦ قوانين « قضت بها على جميع الحريات العامة وبينها حرية الصحافة ، وأصبح كل فرد في تونس ، لا يستطيع ان يطمئن على نفسه من ارهـــاق السلطة الفرنسية ولو كان في عقر بيته ، اذ أضحى عرضة لأقصى العقوبات على ما يفوه به من أحاديث في مجالسه الخاصة ».

ثم عززت السلطة هذه التشريعات الجائرة ، بأوامر اخرى صدرت في ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣، أعطت بمقتضاها للمقيم العام الفرنسي، حق اعتقال أي فرد بدون أية محاكمة ولو صورية [١]

ولون آخر من ألوان الاضطهاد الجائر الذي يكابده الشباب، هو هذا الحجر الفكري الذي يعمد اليه المتزمتون ، وذلك القيد الذي يفرضونه على الفكر المتحرر . وما أسرع مـا تدفع به الى ظلمات الفكر والالحاد ، اذا طلع على الناس بما يغاير المالوف، او يلقي في أعمـــاق النفوس، الفهم الصحيح للواقع المريض الذي تعيش فيـه . ولا يزال من أخطر أمراض الشرق ، وأفتكها ، وأفدحها ، انه بيئة لا تتسع للرأي الحر ، مهما كانت صور هذا الرأي . ولا يزال النموذج الذي نفتقده ، هو ذلك الذي يلخصه فولتير في هذه العبارة الخالدة : « قد أخالفك في الرأي، ولكني مستعد ان

(١) هذه تونس – للحبيب ثامر ، ص ٧٦ .

أدافع حتى الموت عن رأيك لكي تقوله». ذلك أرقى ما تطمح اليه النفوس الكريمة. ولكن نزعة المحافظة، الضاربة جذورها في العالم العربي، لا تزال ترى في الرأي الحر عدواً يُخشى خطره. ولذلك كانت تتجه الى وأده والقضاء عليه، وسلاحها دائماً، التلويح بالكفر، والاخراج من الايمان.

والشابي قد عرف ضروباً من هـــذا البلاء الذي ألقى في نفسه هذه الكآبة العميقة الجارحة، وبثَّ في أنغامه هذا الحزن المرير. وشاهد صوراً من هذا الجور الذي يلمّ بأبناء الحياة الذين يحملون شعلة الرأي الحر. ولم تكن عبثاً هذه القطعة، التي يصوّر فيها ما يتعرض اليه المصلح الذي يتصدّى لحمل رسالة الاصلاح:

لست أبكي لعسف ليل طويل
او لرَبع غدا العفاء مراحه
انمـــا عَبرتي لَخطبٍ ثقيـل
قد عرانا ولم نجد من أزاحه
كلمـــا قام في البلاد خطيب
موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسف
أماتوا صداحـــه ونواحـــه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد
فاتك شائك يردُّ جماحه!!

وتوخّـوا طرائق العسف والارهاق
معه ، ومـا توخّـوا السماحه
هكذا المصلحون في كل صوب
رشقات الردى اليهم مُتـاحه

تقوم الرومانسية على الايمان بالعـاطفة ، وتقديس الشعور ، والاستخفاف بالعقل ، والتهوين من شأنه ، بل تحقيره ، لأنه يصيب الحياة بالجفاف ، فيفقدها أجمل ما فيها ، وأجمل مـا فيها بلا خلاف ، ما كان نتاجاً للعاطفة ، وقد كانت العاطفة كل شيء في حياة هذا الشاعر الرومانسي ، وكانت يقظة الاحساس ، رسالته التي عاش من أجلهـا . فلا مجد للنفوس من غير هذه اليقظة ، ولا خلود لها الا اذا اتخذت من الشعور بالذات قوة دافعة الى السموّ والتعالي . وما تميزت الأفراد عن بعضها الا بمقدار نصيبها من هذا الشعور . « ومن شعرَ بنفسه حق الشعور احترمها ، وسما بها عن مواطن الضعة والحقارة . ومن شعر بالحيـاة حق الشعور ، لم يستطع ان يكون بوقاً يردّد صدى غيره ، ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله ، بل كان بحراً رحيباً داوياً ، يدمدم بما في أعماقه من قوة وعزم ، وأهوال يقظة روحية عميقة » .

وفي قصيدة « فكرة الفنان » يصوّر الشاعر ايمانه بالعاطفة ، وما تبعثه في النفس من الآمال العذاب ، وأثر الفن الصادر عن العـاطفة في تجميل الحيـاة التي لولاها لكانت كالبيت المتهدّم المهجور . ويستخفّ بالعقل ، فيراه صغيراً ، مغروراً ، عاجزاً عن اكتشاف أسرار الوجود ؛ تلك

الأسرار التي لا يمكن اكتشافها الا عن طريق العاطفة، التي تتجاوب مع الكون، وتندمج فيه اندماجاً صوفياً، مستشعرة لذة النشوة الروحية، المقدسة. ان العاطفة عند الشابي، هي التي تهدي الانسان سبيل الاحساس بالجمال، والتشوق الى سحر الوجود، وما فيه من رائع فتّان، تفنى النفس الشاعرة في جماله الأخّاذ.

وواضح ان الرومانسية كانت ثورة على النزعة العقلية الفلسفية في القرن الثامن عشر. ذلك القرن الذي شاع فيه الايمان بالعقل، والاعجاب بقدرته على اكتشاف الحقائق المجهولة وإدراكها، وتفهُّم أسرار الحياة. فكان المذهب الرومانطيقي ردّاً فعلياً قوياً، على هذا الجفاف العقلي، وانصرافاً كاملاً الى العاطفة، وايماناً عميقاً بقدرتها على إدراك أسرار الوجود.

والشابي يلخص هذا المذهب خير تلخيص، في قصيدته السابقة التي بناها على تمجيد العاطفة والزراية بالعقل:

والعقل رغم مشيبه ووقاره
ما زال في الأيام جدُّ صغير
يمشي فتقرعه الرياح فينثني
متوجِّعاً كالطائر المكسور
ويظلُّ يسأل نفسه متفلسفاً
متنطِّعاً في خفَّةٍ وغرور

عمـــا تحجّبه الكواكب خلفها
من سرٍّ هذا العـــالم المستور
وهو المهشّم بالعواصف ، يا له
من ساذج متفلسف مغرور

ولكن العاطفة قد أفسدت عليه حياته ، وأصابته بدائه القتّال الذي حطّمه وأودى به وهو في نضارة الشباب، كما أفسدت كثيراً من أحكامه حين أوهمته بأنه ليس من طينة الناس :

أنت كالزهرة الجميلة في الغـاب
ولكن مـــا بين شوك ودود
وبنو الناس كالقرود ، وما أضيع
عطر الورود بـــين القرود

وتتحقق في هذا الشاعر جميع صور الرومانسية ، بمـا فيها الخروج عن مالوف العصور القـديمة ، والثورة على التقاليد الاجتماعية والأدبية ، والنقمة على الأوضاع الفـاسدة ، والامتياز بالذاتية الخاصة ، والعكوف عليها ، والتعبير عما يجري في جوانحه من صراع عاطفي عنيف .

الشَّابي وجُبرَان

تتفق أغلب الدراسات على تأثير جبران في الشابي ، ولكنها تقف صامتة ، عند تحديد مدى هذا التأثير . وهذه الكلمة محاولة متواضعة ، لتحديد الصلة بين الشابي وجبران . وتصحيح الوهم الذي علق ببعض الأذهان ، فصوّر لها ان أثر جبران في الشابي لم يتعدَّ حدود التشابه في الصياغة وطريقة الأداء . والدراسة الواعية لانتاج هذين الأديبين، تكشف مدى الأثر العميق الذي طبع به جبران الشابي ، وتوضح انه كان من أخلص تلاميذه وأنبغهم . ولعل الادب المعاصر لا يعرف بين شعراء الادب الحديث ، من وضح فيهم تأثير جبران كما وضح في الشابي .

الشابي تلميذ نابغ لجبران .

والتلمذة تعني التشابه في الخصائص الفنية ، وفلسفة الحياة . فالى أي مدى كان الشابي متأثراً بجبران في هذين الناحيتين ؟

الحب والحرية والتمرد ، هي العناصر البارزة التي تقوم عليها فلسفة جبران ، او مذهبه في الحياة، وهي التي تكوّن مضمونه الادبي ، وينبثق منها رأيه في الحياة الشرقية ، وتحدد له الأهداف التي كان يسعى الى تحقيقها . وقد علم القارىء من الفصول المتقدمة ، ان الحياة الشرقية ، في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن ، كانت حياة غارقة في ألوان من

الجمود والعبودية ، متخلفة عن الركب الحضاري ، مستغَلة من قِبل الاجانب الواغلين . وقد أدرك شباب العرب هذه الحقيقة المُرَّة ، فآمنوا بأن الحرية قوام كل شخصية انسانية . ومن هنا كان اندفاعهم الى محاربة مظاهر الضعف التي كانت شائعة في الشرق العربي ، فاتجه بعضهم الى محاربة التقاليد البالية التي كانت تشد المجتمع الى ظلمات العصور الغابرة. وفي هذا الميدان يبرز جبران، فقدكان أدبه ثورة عاصفة «تقتلع الأنصاب التي أنتنتها الأجيال » ، ودعوة حارّة الى النهوض ، ومماشاة الزمان .

وقد بلغت حملاته درجة من العنف لا يقرُّه عليه الكثيرون ممن يشفقون على المريض . وكان يرى الاشفاق أشد أنواع «المخدرات» الشائعة في الشرق ضرراً ، ويؤثر عليه الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة . ويكره الاعتدال ، « لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحقيقة » ، بل انه ليمعن في ثورته على بني قومه، فيكرههم لأنهم يكرهون المجد والعظمة، ويحتقرهم لأنهم يحتقرون انفسهم، حين يلقون بها الىالرجعية التي أخمدت فيهم الحياة « والحياة عزم يرافق الشبيبة، وجدٌّ يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ . اما انتم يا بني امي، فقد وُلدتم شيوخاً عاجزين، ثم صغرت نفوسكم ، وتقلصت جلودكم ، فصرتم تتقلبون على الاوحال وتترامون بالحجارة » .

وهي ثورة تعيد الى الذهن ثورة الشابي على شعبه الذي كان يراه غير جدير بالحياة :

لست يا شيخ للحياة بأهل   انت داء يبيدها وتبيده

كما يراه طفلاً لاعباً بالتراب ، والأخطار محدقة به :

أيها الشعب انت طفل صغير   لاعب بالتراب والليل مغس

وقد انتهى جبران في أدبه ، الى الثورة على كل قديم ، وآمن بأن « بلية الأبنـاء انما تأتيهم من ميراث الآباء . ومن لا يحرّر نفسه من عطايا آبائه وأجداده ، يظل عبـداً للأموات حتى يصير من الأموات » . ومثل هذه الصرخة تحمل في ثناياها ردّ فعل على مجتمع كان يقدّس الحياة الغابرة.

« فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي، ويميلون الى الامور السلبية المفكهة ، ويكرهون المبادىء والتعاليم الايجابية التي تلسعهم وتنبّههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة . انما الشرق مريض تناوبته العلل، وتداولته الأوبئة حتى تعوّد السقم وأَلِف الألم، وأصبح ينظر الى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية ، بل كخلال حسنة ، ترافق الارواح النبيـلة والأجساد الصحيحة، فمن كان خالياً منها عُدَّ ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية » .

ولما كان من أبرز مظاهر هذه الحرية ، محاربة التخلف الاجتماعي ، ومقاومة كل ما يعوق تحرير الشخصية الانسانية ، فقـد ظهرت في أدب جبران ، دعوة الى احترام الحب وتقديسه . فارتفع بالمرأة ، في أدبه ، عن الحدود المادية ، وعبَـدَ أمومتها ، وكان تغزُّله بهـا بعيداً عن التدنّي الى الاعراض الجسدية . وكان يقول : « ان الكتّـاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ، ولكنهم للآن ، لم يفهموا أسرار قلبهـــا ومخبآت صدرها ، لأنهم ينظرون اليها من وراء نقـاب الشهوات ، فلا يرون غير

خطوط جسدها ، او يضعونها تحت مكبرات الكره ، فلا يرون فيها غير الضعف والاستسلام » .

وهو مذهب تأثر به الشابي ، كما يتضح ذلك في الفصل الذي نعقده للمرأة في شعره .

والتمرد صفة بارزة في هذه الفلسفة ، التي كانت تهدف الى ان تعيد للانسان كرامته ، وتعمل على تحريره من جميع القيود . ولذلك كانت حملة عنيفة ، موجّهة الى الكهانة ، فيرى جبران « ان الكهانة هي الحرفة الاولى التي ابتدعها الانسان ، بدون حاجة حيوية او داعٍ طبيعي لها » . ويسلط نيران غضبه على رجال الدين ، سواء في ذلك الامام المسلم والقس المسيحي . وتسري الى الشابي مثل هذه العقيدة ، فلا يحجم عن القول :

مُلِئَ الدهر بالخداع ، فكم ضُلِّلَ الناسُ من إمام وقسٍّ

وقد أُصيب الشابي، كما أُصيب جبران ، بنتائج هذه الثورة ، فاتُّهم الاول بالخروج على الدين ، واتهم الثاني بالتطرُّف ومحاربة الكنيسة . وقد كان لذلك أبلغ الأثر في احساسها بالغربة، في مجتمع لم يقدِّر البواعث المخلصة التي كانا يصدران عنها ، فلم يفهم أغاني نفسيهما . فكان جبران ينشد في ألم زائد : « انا غريب في هـذا العالم ، وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة ، غير انها تجعلني أفكر أبداً ، بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ أحلامي باشباح أرض قصيّة ، ما رأتها عيني . انا غريب ، وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي . انا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ،

وأنثر ما تنظمه . ولهـذا انا غريب ، وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا ، وتحملني الى وطني » .

وكان الشابي يحسّ بالغربة في بلد لم يفهم أناشيده :

انى انا الروح الذي سيظل في الدنيـا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب

يا صميم الوجود كم انا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معـاني بؤسي

ولم يسلم هذا الاحساس من التناقض الذي يبدو في هذه الحيرة، والتردد بين الانطوائية والاتصال بالنـاس . فالشابي الذي يشكو الغربة في هـذه الأبيات ، يراها في أبيات اخرى ، سعادة يحرص عليها الرجل الرشيد :

والسعيد السعيد مَن عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود

وقد انطوى تمرّد هذين الاديبين على معـانٍ كثيرة ، أبرزها تقديس الطموح والدعوة الى التطور . حتى لينصّب جبران من نفسه ، حفاراً للقبور ، يواري الثرى كل من لا يسير مع العاصفة .

وهو يلخص فلسفته في قصة « البنفسجة الطموح » ، التي استبـدت بها رغبة التجربة، حين أصغت الى الحقيقة الخالدة « انما القصد من الوجود الطموح الى مـا وراء الوجود » . وقد كان في ايمانه بهـــذه الفلسفة ، مستهدفاً محاربة الخضوع والاستسلام لفلسفة القضاء والقدر ، التي كان

يراهـا مخدراً خطيراً من مخدرات الشرق ، تعوقه عن اليقظة ، وتزيد في نومه واستسلامه .

وكان الشابي يؤمن بالطموح ايماناً عميقاً . وكان يبحث في شعبه ، عن صورة المغاور ، المقتحم ، المتطلع الى ما وراء الوجود . ومن هنـا كانت هتافته المشهورة :

اذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيـد ان ينكسر

هذه القصيدة الخالدة التي تعلن للناس « ان الطموح حبيب الحيـــاة وروح الظفر » ، يجب ان نبحث عن العناصر التي كانت تغذي جذورها ، في أدب جبران ، في فكرتها العـــامة ، وفي تشابيهها ، وسوف تكشف المقارنة الواعية عن حقائق بالغة الأهمية .

وشعر الشابي معرض حافل بأمثال هذه المعاني الثائرة على العيش في ظلام القديم ، الداعيـة الى نور المستقبل . وهما يتشابهان في مصادر هـذه الوطنية ، فكلاهمـا انطلقت وطنيته من الاصطدام بالتخلف الاجتماعي ، المستسلم الى الجمود .

أما التشابه في الخصائص الفنية، فتلك صفة واضحة في اتفاق الاديبين على تمجيد الفن ، والسموّ به عن الاغراض التافهة. ولعل جبران قد ألقى في نفس الشابي مثل هذا التقدير ، فقـد كان ثائراً على الهبوط بالشعر الى الاهتمام بالتوافه الاجتماعية ، وهي ثورة قام عليها صرح الادب المهجري ، الذي اتخذ من الفن رسالة بعث وإحياء، فصوّب نيرانه الى التقاليد الادبية

التي تعنى بالبهرجة اللفظية، والزخرف البديعي، وآمن بأن نصيب الشاعر من النجاح، يحدده رصيده الفني، وملكته الشاعرة. وهذه وحدها خالقة اللغة، حتى ليرى جبران، ان قوة الابتكار، انما تكمن في لسان الشعراء، المخلصين لأنفسهم وفنهم.

امتاز أدب جبران، بقيامه على الصدق الشعوري، والانفعال الحاد، والاعتماد على بساطة الأداء وقوة الإيحاء، وهو ذو اسلوب تصويري، ينتزع صوره ومشاهده من الطبيعة. وهذه مزية تفرّد بها جبران في أدبنا المعاصر، وقد أسعفته في ذلك ملكته المصورة القادرة على خلق الصور الرائعة. وإنا لنلمح أثره واضحاً في الشابي الذي زاد من مطالعته، وعكف على كتبه. ولولا خشية الإملال والإطالة، لعرضنا على القارىء أمثلة عديدة للصور والتعابير الجبرانية، في شعر الشابي، وبعضها اصبح أبياتاً قائمة بذاتها.

يقول جبران:

« مَن يهوى النور فالنور يهواه »

ويقول الشابي:

« ومَن ناجت النور أحلامه   يباركه النور أنّى ظهر »

ويقول جبران في غربته بين قومه: « ثم ألتقي برهط من الشيوخ، فيومئون نحوي بأصابع وثيقة قائلين: هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان ».

وذلك ما قاله سدنة الماضي في الشابي ، وهي عبارة جبرانية نظمها في نسق رائع :

« قد أضاع الرشاد في ملعب الجن فيـا بؤسه أُصيب بمسٍّ »

وأثر جبران أثر واضح في كثير من قصائد الشابي . ولكني احب ان أقف عند قصيدة « النبي المجهول » ، فهي ، بما تحمل من أفكار متمردة ، ذات صلة بعيـدة ، بادب جبران وطريقة أدائه . ولست أشك اطلاقاً ، في ان الشابي قد استوحى بعض مقاطع هـذه القصيدة من كلمتين لجبران بعنوان « بين ليل وصباح » ، و « خليل الـكافر » ، وان دراستها قد عملت في ذهنه ، حتى أخرجت لنـا تلك الصورة . وتقوم الكلمة الاولى لجبران على السخرية من قومه ، الذين تفتنهم المظاهر ويخـدعهم البهرج ، فيتعامون عن الجوهر الصحيح .

« لقد أزهرت نفسي في الربيـع وأثمرت في الصيف، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها في أطبـاق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق ، فـكان العابرون يتناولون منها وياكلون ، ثم يسيرون في سبيلهم . ولـما انقضى الخريف ، وتحوَّلت تهاليله الى الولولة ، نظرت فلم أرَ في أطبـاقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي ، فتناولتها وأكلت ، فالفيتها مُرَّة كالعلقم، حامضة كالحصرم » .

« كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين امواج البحار ، وتنتقل مع الأهواء من شاطىء الى شاطىء . ولقد كانت سفينة فكرتي خالية إلا من سبعة اكواب طافحة بالوان مختلفة ، تشابه ألوان قوس قزح بنضارتها .

وجـاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار ، فقلت : سأعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البـلد الذي ولدت فيه . ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بالوان صفراء كشمس المغيب، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشفق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة ، تجذب العين وتبهج البصيرة . ولما انتهيت من عملي ، وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين : البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدي ، فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم ، وأدخلوني المدينـة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور . فعـلوا ذلك ، لأن خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً . ولم يدخل احد جوف سفينة فكرتي ، ولم يسأل احد ماذا جلبت فيها من وراء البحار، ولم يدرِ احد اني عدت بها فارغة الى الميناء . عند ذلك قلت في سري : لقد ضلّـلت الناس، وبسبعة اكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم . وبعـــد عام ، ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانيـة . ملأت سفينة فكرتي بنفائس الارض وغرائبها ، وعدت الى ميناء بلدي قائلاً: سوف يمجدني قومي،ولكن عن جدارة، وسيدخلونني المدينة منشدين مزمرين ، ولكن عن استحقاق . ولكن لـما بلغت الميناء ، لم يخرج احد لملاقاتي ، ودخلت شوارع بلدي ، فلم يلتفت اليَّ احد .

ووقفت في ساحاتها ، معلناً للنـــاس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفهـا ، فـكانوا ينظرون اليَّ والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ، ثم يتحولون عني . فعدت الى الميناء كئيباً مستغرباً ، ولكنني ما لمحت سفينتي ، حتى فطنت لأمر كنت مشغولاً عنه بمنـــازع أسفاري

ورغائبها . فهتفت قائلاً : ان امواج البحار قد محت الطلاء عن جوانب سفينتي فبـانت كهيكل من عظام ، وعفت الارياح والانوار وحرارة الشمس الرسوم عن أشرعتها ، فظهرت كأثواب رمادية بالية . لقد جمعت طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه المياه وعدت الى قومي، فنبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية » .

لقد تركهم متوجهاً الى مدينة الاموات مفكراً باسرارها. اما الشابي فقد أنشدنا هذه القطعة الرائعة ثم ذهب الى الغاب :

في صباح الحيـاة ضمخت اكوابي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فاهرقت رحيقي ودستَ يا شعب كأسي
فتـألمت ثم أسكتُّ آلامي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضـدت من أزاهير قلبي باقـــة لم يمسها اي انس
ثم قدمتهـــا اليك فمزَّقت ورودي ودستها اي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توَّجت رأسي
ها انا ذاهب الى الغـاب علِّـي في صميم الغاب أدفن نفسي

ولسنا في حـاجة الى التأكيد بأن التغني بالغاب نغمة جبرانية ، وان التتويج بالشوك صورة مسيحية ! وقد ذهب الى الغاب، وعاش بين طيوره وأشجاره مفكراً في اسرار الوجود .

وكان في ذلك شبيهاً ببطل العاصفة الذي كان يطلب الوحدة ، « لأن في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد. » طلبت البرية الخالية ، لأن فيها نور الشمس ورائحة الازهار وأنغام السواقي . طلبت الجبـال ،

لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت الى هذه الصومعة المنفردة ، لأني اريد معرفة اسرار الارض والدنوّ من عرش الله » . وهو لم يفرّ من الناس الا بعد ان تحقق من فشل الرسالة التي ينادي بها وإعراضهم عن مبادئه السامية وأهدافه البناءة . وفي هذا الركام من المفاسد يبدو له كل شيء باطلاً : « ليس بين أباطيل الحياة سوى امر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها . ليس هناك غير شيء واحد . هي يقظة النفس . هي يقظة في النفس . هي يقظة في عمق اعماق النفس . هي فكرة تفاجىء وجدان الانسان على حين غفلة ، وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الارض واللانهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الوسيع . هي عاطفة تهب على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجزيها ، متمرداً على الذين لا يفهمون اسرارها . . هي يد خفيفة قد أزالت الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين اهلي واصحابي ومواطني ، فوقفت منذهلاً مدهوشاً قائلاً في نفسي : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين اليّ ، وكيف عرفتهم وأين لقيتهم ولماذا اقيم بينهم ، بل لماذا اجالسهم وأحادثهم ، هل انا غريب بينهم ، ام هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمتني مفاتيحها ؟ ان اليقظة الروحية هي أخلق شيء بالانسان ، بل هي الغرض من الوجود » .

ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذي قدّسه الشابي وجعله كل شيء

في حياته ، ليس سوى فكرة جبرانية . فاليقظة التي تجعل بطل جبران غريباً بين الناس ، لا ينقـــاد لتعاليمهم ولا لتقاليدهم ، لأنه يحس بنفسه ويشعر بذاته ، فيكره لهـا ان تذوب في اية صورة من صور العبودية ، هي اليقظة التي تملأ عبقرية الشابي شعوراً بنفسه وبالحيـاة : « ومن شعر بنفسه حق الشعور احترمها وسما بهـا عن مواطن الضعة والحقارة ، ومن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع ان يكون بوقاً يردد صدى غيره ، ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله ، بل كان بحراً رحيباً داوياً يدمدم بمـا في اعماقه من قوة وأهوال يقظة روحية عميقة » .

ان الشابي قد تأثر بالادب المهجري ، وتأثر بجبران بنوع خـاص . والباحثون في حـاجة الى ان يلتفتوا الى ادب جبران اكثر من اي اديب آخر ، وهم في غنى عن التخبط والتعسف والتعويل على الظن والتخمين . فاسلوبه النثري متأثر بجبران، واسلوبه الشعري متأثر بجبران، وأفكاره متأثرة بجبران . ولا مكان لفوزي المعلوف في هـذا الشعر ، فلا الروح ولا الصياغة ولا المبدأ .

والمشابهة بينـه وبين جبران اعظم من ان توحيها المصادفة او وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها المشابهة التي تنتجها التلمذة ، تلمذة من عكف على دراسة جبران وأدبه . ومن هنـا يبدو لنا خطأ الدكتور ابو شادي الذي كان يعتبر الشابي تلميذاً من تلاميذ مدرسته الشعرية . والحق الذي لا مراء فيه، ان التجاوب الذي كان بينه وبين الشابي انما هو تجاوب شكلي

لا يتعدى الصياغة اللفظية. اما التغني بالنور فصفة بارزة في ادب جبران، وقد سبق بها ابا شادي .

لقد التقى الشابي بمدرسة ابوللو لقاء رفيق على درب واحد ، ولم يلتق بها لقاء مُريد يتتلمذ ويستفيد .

مرة اخرى نقول انه اذا أُريد فهم الشابي والمدارس الادبية التي أثرت فيه وعملت في ادبه ، فانه يجب ان نلتفت الى جبران بصفة خاصة . ذلك لأن النقمة على التخلف ومحاربة الكهانة ، وتقديس الحرية ، واحترام الشخصية الانسانية ، والايمان بالطموح ، وعبادة الفن ، والركون الى الطبيعة ، وبساطة الأداء في التعبير ، والصدق في الشعور ، والعبارة التصويرية ... كلها اشياء تتلمذ فيها الشابي على جبران .

وبعد ، فان هذه الكلمة لا تدعي اكثر مما لها ، وقد أعلنت في بدايتها انها محاولة . وهي اذا وفقت الى توجيه نظر الباحثين الى اثر جبران في الشابي ، ودراسته دراسة واعية متفهمة ، فقد حققت ما كانت تحرص على تحقيقه .

الوطنية في شعر الشابي

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ اين الطموح والاحلام ؟
اين يا شعب روحك الشاعر الفنان ؟ اين الخيال والالهام ؟
اين يا شعب فنك الساحر الخلاق ؟ اين الرسوم والانغام ؟
إن يمَّ الحيـاة يدوي حواليك ، فأين المغـــامر المقدام ؟
اين عزم الحياة، لا شيء.. الا الموت والصمت والأسى والظلام ؟
عمر ميت ، وقلب خـــواء ، ودم لا تثـــيره الآلام
أيُّ عيش هذا وأي حيـاة ؟ ربَّ عيش أخف منه الحِمام

كل شيء يعاطف العــالم الحي ويذكي حيــاته ويفيده
والذي لا يجاوب الكون بالاحساس عبءٌ على الوجود وجوده
كل شيء يساير الزمن المـاشي بعزم ، حتى التراب ودوده
كل شيء إلّاك حيٌّ عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيده
فلماذا تعيش في الكون يا صاح وما فيك من جنى تستفيده
لست يا شيخ للحيـــاة بأهل ، انت داءٌ يبيدها وتبيده
انت قفر جهنمي لعين ، مظـلم قاحل ، مريـع جموده
لا ترفُّ الحيــاة فيه ، فلا طير يغني ، ولا سحاب يجوده

انت يا كاهن الظلام ، حياة تعبد الموت ، انت روح شقي
كافر بالحيـاة والنور ، لا يصغي الى الكون قلبه الحجري
انت دنيـــا يظلـّها أفق الماضي وليـل الكآبة الابدي
مات فيها الزمان والكون ، الا أمسها الغابر القديم القصي
انت قلب لا شوق فيه ولا عزم ، وهذا داء الحياة الدوي
انت لا شيء في الوجود ، فغادره الى الموت ، فهو عنك غني
والشقي الشقي في الأرض شعب ، يومه ميت وماضيه حي

أؤثر ان أتخذ من هذه القصيدة الرائعة نقطة انطلاق في تحديد وطنية الشابي ، ذلك لأنها تحمل خطوطاً عريضة واضحة تدل على مدى احساسه بضرورة البعث والتطور ، وتشير الى الاهداف التي يريدهـا لمجتمعه ، وهي في عنفهـا وقسوتها أدلّ على نواحي الضعف التي كان يرزح الشعب تحت عبئها ، ونواحي القوة التي يتطلع اليها الرواد من الشباب .

ولا بد هنا من الاشارة الى ان الشرارة الاولى في وطنية الشابي انمـا اندلعت من اصطدامه بالواقع الاجتماعي المتخلف . انهـا وطنية صارخة ، وحملاتها نارية عنيفة ، ولكنها لم تكن موجّـهة الى الاستعمار الذي يكبّـل مجتمعه ويعوقه عن الحياة ، بمقدار ما هي موجهة الى هـــذه النزعة التي حبست انفاس الشعب وقيّـدته فلم ينطلق ، وشدّته الى العصور القـديمة البالية ومفاهيمها العتيقة التي فقـــدت معناها في نفوس الشباب الواعي المتفهم لرسالته في الحياة .

وقد قضت ظروف الشرق التي يعيشها منذ نهاية القرن الماضي ، بأن

يعاني شبابه ألواناً من الصراع مع قوى متعددة كانت تعمل كلها على إبادته وسحقه، ممثلة في التخلف الرجعي والاستعمار البغيض. وكانت مسؤولية الشباب مسؤولية فادحة، مسؤولية الانسان الواعي الذي تحيط به ظروف عصيبة، تحتم عليه ان يحمل رسالة تتجه في جوهرها الى خلق الروح المتحررة المتحدية الآملة التي تجهد في اثبات شخصيتها وتأكيد حقها في الوجود، وابراز مكانتها منه، والتخلص من رواسب ووراثات الاجيال الغابرة، بما فيها من مفاهيم عتيقة ومنطق بليد. فقد كان ـ وما يزال ـ من أبرز صفات المجتمعات الشرقية، عبادة الماضي عبادة عمياء، والعيش فيه وفي صوره والايمان بكل قيمة، دون تمييز او تحقق من جدارتها بالحياة. والماضي في حقيقته تراث عزيز على كل شخصية انسانية كاملة، ولكنه الاعزاز الذي يجب ان يتخذ نقطة انطلاق ووسيلة الى التفوق والاجتياز، لا الوقوف عنده وعبادته عبادة تحجر الحياة المبدعة، وتجمد القوى الخالقة، وتجعل حياة الناس صورة من حياة المتاحف والقبور. وتلك ظاهرة بارزة في رسالة الشابي الوطنية، فهو لم يكن كافراً بالقديم العريق، ولكنه كان كافراً بالعقلية التي تريد إيقاف الناس عنده، فلا تسمح بتخطيه والتفوق عليه، فتسد بذلك منابع النبوغ والابداع في الامة، حتى ليحسد حاضرها ماضيها لما فيه من صور الحياة البانية. وليس في الارض أشقى من شعب يعيش على أمجاد تاريخه وحياته الحاضرة خالية من كل مجد:

والشقي الشقي في الارض شعب ... يومه ميت وماضيه حي

وهكذا كان شعبه، او هكذا كان الشعب العربي، يعيش على أمجاده

الماضية قانعاً باجترار مآثرها والركون اليها والاستنامة الى تخديرها وما فيها من رائع الاحلام والاوهام . اما الحيــاة المقبلة ، الحياة المتطورة التي تسير مع الزمن وتعبد غدها اكثر من عبادتها لماضيها وأمسها الغـابر الذي غيّـبته خجب الظلام. اما هذه الحياة فقد كان بعيداً عنها ، بفعل التخلف الذي تمثله طبقة تستثمر غفـلة الشعب وجهله ، وبفعل الاستعمار الذي لا يساعده شيء على تمكين حياته وقواعده، كما تساعده هذه الروح الانهزامية التي تعيش في ظلام العصور .

ولقد كان الشابي مندفعاً مع ثورته على شعبه ، حتى لينكر عليه كل قوة ولا يراه خليقاً بالحياة لأنها غنية عنه ، فهو لا يفيدها بشيء ولا يسير معها ولا يذكي وجودها ولا يساهم في تقدم الركب الحضاري ... وينطلق صارخاً في تمرد عنيف :

انت لا شيء في الوجود فغادره الى الموت فهو عنك غني

ولكنه يعود مرة ثانية الى مناداة هذا الشعب، مؤمناً بقوته وفعاليتها وإمكانياته الرائعة التي لم يتسنَّ لها الانطلاق من أسر الماضي لتكون خير أساس في تدعيم النهضة . انهـــا قوة عبقرية ، ولكنها مكبلة بظلمات العصور :

انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمسي
انت في الكون قوة لم تمسها فكرة عبقرية ذات باس

قيود الماضي هي التي علمته عبادة الموت ، والكفر بالحياة المتطورة ، والإشاحة عن النور الهادي والأشواق الطامحة ، والعزم الباني الذي يهزأ

بالصعاب ولا يبالي بالعقبات . لقد جمدته في مفاهيمها البـــالية ولم تسمح لعينيه بمعانقة النور ، نور الحقيقة ، نور الحياة المتطورة . لقـد مات في نفسه كل شيء الا أمسه البعيد ، فلا عجب اذا هتف الشاعر به مراراً :

انت دنيا يُظلِّلُها أفق الماضي وليـــل الكآبة الأبدي
مات فيها الزمان والكون إلا أمسها الغـابر القديم القصي

وماذا يريد الشابي من شعبه ؟

هذه القصيدة ، وغيرها من قصائده الثـائرة ، تبين أهدافه وتكشف عنها . فلقـــد كان ينشد في شعره المجتمع الذي تتكامل له شخصيته التي تتجلى في تقدميته الشاملة بمختلف ميادين الحيـاة . تقدمية تسير مع الزمن وتماشيه، ولا تقف عند الحدود الضيقة للمفاهيم التاريخية. تقدمية تتجاوب مع الكون وتتفاعل مع الحيـاة ، وتضيف الى التراث الانساني انتصارات جديدة في مختلف الآفاق العلمية والفنية. تقدمية تحقق رسالة الحياة، ولا معنى لهذه الرسالة اذا لم تكن انطلاقة متمردة تساهم في إغنـاء العالم وتطويره . والمجتمع الذي يكفر بهذه الحقائق مجتمع فاشل ميت غير جدير بالحيـاة ، فهو داء يجب ان تعمل على إبادته قبل ان يبيدها :

انت قفر جهنمي لعـــين مظلم قاحل مريع جموده
لا ترفُّ الحيـاة فيه ، فلا طير يغني ولا سحاب يجوده

هذه هي حياة شعبه ـ كما يراها ـ حياة خالية من كل صور الحضارة الانسانية ، حتى لتبدو في جفـافها كالصحراء القاحلة : لا تحتضن الطير ،

ولا تنبت الزهر ، ولا يجودها السحاب . ومثل هـذه الحياة كانت تذيب مهجة الشابي ، وتلقي في نفسه النقمـة على الجمود . وصراعه مع مجتمعه ليس سوى صراع الحركة الخالقة المبدعة مع الركود الجامد المميت . وقد آمن أن طريق النهضة والتفوق هو يقظة الحس ؛ ولذا أخـذ يشدد على هذه الظاهرة، حتى ليرى أثرها في تقدُّم المجتمعات أشد مفعولاً من الحرية. وأبرز صفات هـــذه اليقظة الحسية ان تمنح المجتمع ذاتيـة متفردة ، وشخصية متكاملة ومشاركة واعية متفهمة .

« اذا تيقظ الاحساس في روح الشعب تحركت في صدره ــ رغم كل شيء ــ تلك الاشواق الطامحة والرغبات الجـامحة التي كانت مكبلة نائحة في ليل الدهور . واذ ذاك يشعر بنفسه ، واذا قلنا يشعر بنفسه فقـد قلنا كل شيء . ويعلم انه عضو في هـالة المجموعة البشرية عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الانسانية المنشود . في سبيل مثل الحياة العليـا . في سبيل الحق والقوة والجمال » .

تلك هي المنزلة التي كان يريدها لمجتمعه ، منزلة ترتفع به عن التبطل والخمول الى الطموح والحياة الخصبة . وما اكثر ما نقرأ في شعره وكتاباته من تمجيد لهـذه اليقظة « ان مجد النفوس يقظة حس » و « وان يقظة الاحساس هي روح الحيـاة المنتجة الولود التي تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ » . لقـــد كان يرى في هـذه الصفة دعامة تحقيق الشخصية الوطنية التي تبدو على أتمها في الاستقلال الفني والعلمي، والتفوق الحضاري بصفة عامة .

وهو لا يستطيع ان يتصور لمجتمعه شخصية من غير هذه الصفات . ولذا كان هتافه منطويا على تلك الأسئلة المؤلمة عن مظاهر الحياة الراقية : أين الرسوم التي تدل على ارتفاع في ذوق الامة ؟ اين اين الأنغام التي تعبر عما يختلج في نفسها ؟ اين الطموح الذي لا يستريح الى الحاضر الموجود ولكنه يتطلع الى المستقبل المنشود ؟ اين المغامر المقتحم الذي يغزو آفاق المعرفة بعزيمة لا تعرف الفتور ، ويعيش حيـــاته كما يجب ان يعيشها الانسان الكامل ؟.

وحين أعياه العثور على معاني هذه الأسئلة ، لم يتردد في ان يتهم شعبه بالجمود والتخلف ، وعدم التجاوب مع أفراح الحياة وأحزانها .

عمر ميت وقلب خواء ودم لا تثـيره الآلام
أي عيش هذا وأي حيـاة رُبَّ عيش أخف منه الحِمام

انهـا ثورة عنيفة ، ثورة من يريد ان ينقل مجتمعه في يوم وليلة الى مجتمع شاعري فاضل . انهـا ثورة عاطفية ينقصها التعقل والاتزان ، وتعوزها الاحاطة الشاملة بمعنى التطور ، وفهم حقائق الحيـاة الاجتماعية والسياسية ، ورواسبها التي لا يمكن ان تبتر بضربة واحدة ، فلا بد لهـا من الزمن .

لقد كان الشاعر متقدماً على عصره ، فلم يفهم كلاهما الآخر .

إن قوى الماضي كانت تخنق أنفاس الامة ، وتسعى الى وأد كل حركة متحررة ، وتعمل على تحقير الشخصية الانسانية بالحجر عليهـــا وعلى

تفكيرها . وكأنما كان يرى ـ هـذا الشاعر الثائر ـ أن لا سبيل الى طرد المستعمر وقهر الغاصبين ، إلا بخلق الشخصية القومية العـاملة الطامحة ، التي لا تستريح الى نصيبها من الحيـــاة ، ولا تتعزى عما أصابها من بلاء بتخدير حواسها بالتعليلات المتخلفة، ولا تلتمس لقعودها وانهزامها تعليلاً في القضاء والقدر ، صفة العاجزين المتواكلين الذين ينتظرون ان تمطرهم السماء ذهباً .

وفي النقمة على هذه الفلسفة الخانعة المستسلمة التي يغذى بها احساس النـــاس ، تنطلق هتافة الشابي متمردة طليقة مؤمنة بالحياة والطموح ومماشاة الزمان ، كارهة للحيـاة بين الحفر ، ومتطلعة الى السموّ مترفعة عن الجمود والركود الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدهم :

اذا الشعب يوماً أراد الحيـاة   فلا بدَّ ان يستجيب القدر
ولا بدَّ للَّيل ان ينجلي   ولا بدَّ للقيـد ان ينكسر

انها وطنية صادقة لا تخدم أغراضاً طبقية، ولا تسير في ركاب حزب، ولا توحيها مناسبة هزيلة ضئيلة لا تخرج في سطحيتها وبرودها عن تعليق الصحف . وطنية متمردة، وطنية الشاعر الذي وعى رسالته، فاحسّ في أعماقه أنه مسؤول عن تبصير شعبه بمعاني الحياة الحرة الكريمة ، مسؤولية الشاعر الذي احترم ذاته وكيانه واستقلّ بهما عن الآخرين، فاحبّ لشعبه ان يحقق ذلك في شخصية متميزة تتجه الى المساهمة الحضارية الخـالقة . وهو في ذلك يعـــانق الروح العالمي ، ولا يرى غضاضة في استلهام الفن والادب الغربي . وربمـا كان مؤمناً في أعماقه ، بما يؤمن به اكثر شباب

العصر من بطلان تلك الفكرة التي دأب بعض العقول على ترديدها ، عن مادية الغرب وروحانية الشرق . ان المدنية التي يبلغ فيها الانسان كمال انسانيته لا يمكن ان يقــال انها مـادية ، انما المادية في هـذه العبادة للماضي ، والعبودية للواقع ، بما فيه من سيطرة طبيعية واجتماعية .

الطبيعة في شعر الشابي

عندما نتحدث عن الطبيعة عند هـــذا الشاعر ، يجب ان نميز بين احساسين : بين من يصف الطبيعـة لأنه يراهـا وسيلة من وسائل اللذة والتنعم، وبين من يصف الطبيعة، لأنه يعبدها وينظر اليها نظرة عاطفية رفيعـة تنبثق من مشاركته لظواهرها والاندماج في محاسنها . الاول قد يقف عند المشاهد الطبيعية، فيستقصيها ويتتبع دقائقها وتخرج من قراءته بلوحات فنية رائعة، ولكن هذه اللوحات على روعتها وجمالها ، تفتقر الى احساس الخاشع المتصوف الذي نجده عنـــد الشاعر الذي يصف الطبيعة وصف العابد لروعة معبوده . وفي هذا الاحساس الاخير يقف الشابي قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين الذين ظفرت الطبيعة في شعرهم بنصيب كبير.

ان الطبيعة التي يصوّرها الشابي، ليست متعددة المشاهد ولا متنوعة المنـــاظر ، وشعره خالٍ من « اللوحات » الطبيعية الـكاملة ، فلا ترى وصفاً خاصاً بنهر او روض ، او غير ذلك من المجالي الطبيعية الرائعة . ولكننـا حين نقرأ شعره ، نحس ان الشاعر يعبـد الطبيعة عبادة عميقة تصل به الى درجة الفناء في جمالها الأخّـاذ ، وندرك ان شعوره بها لم يكن شعوراً بسيطاً، ولكنه كان شعوراً عميقاً لأنه لا يتذوقها في سذاجة المتلذذ المتنعم الذي لا يشغله منها الا ما تهيئه له من راحة وظل وفير .

طبيعة الشابي تسكن استعاراته وتشابيهه ، ولا تقوم وحدها قصائد مستقلة ، معبرة عن روعة هـذه المناظر التي يشير اليها اشارة عابرة ، او مصورة لما فيها من سحر وجلال . على ان ذلك لا ينفي ان الشاعر كان عميق الاحساس بها ، حتى ليبعث في حديثه عن الطبيعة دفئاً وحنـاناً لا نعهدهما في غيره من الشعراء المعاصرين . وهو يظهرها امـــام عينيك في كامل بهائها ، بما تملكه عبارته من قدرة فائقة على الإيحاء .

ان للسماء البـاسمة ، والكهوف الواجمة ، والجدول الجاري ، والأفق الجميل، والنسيم الرخي، وشفق السحاب، وظلمة الليل، وعصافير الصباح، والغمام الشرود ، وأعاصير الخريف ، والشتاء العابس ، والحسك الدامي، والورود الغضة ، ووهج الصيف ، والخريف الحزين ، والربيع الجديد ، وأرج الازهار ، ونور الضحى ، والمروج الخضراء ... كل هـذه ألوان يستعين بها الشابي على ابراز معانيه في قالب من الصور .

وانعدام هـــذه التفاصيل لا يدل على ضعف في احساسه بالطبيعة ، وانما يدل على انه لا يستطيع تأمُّل المشهد الطبيعي على انفراد . فهو ، اذا تأمّله ، أضفى عليـه احساسه وآلامه . وهو في ذلك يسير وفق نزعتـه « الرومانسية » ، تلك النزعـــة التي تتجه الى الانصراف الى الطبيعة ، والهيام بما فيها من سحر وغموض ، والركون الى أحضانها التي تهييء البعـد عن الانسان وشروره ، وفوضى الحيـاة المادية وما فيها من رذيلة وفساد .

ان الركون الى الطبيعـة مزاج مميز لتلك الشخصيات التي تجنح الى

المثالية ، وبساطة الحياة وظهرها . ولقـــد بلغ من سيطرة الطبيعة على الشابي، وحبه لها، أن كانت استعاراته وتشبيهاته أصداء لجمالها، وقصائده حافلة بهذه الأمثلة الرائعة التي تدل على عمق احساسه . وخير مثـال على ذلك ، قصيدته « صلوات في هيكل الحب » . فان عذوبة فاتنته لا تشبهها إلا عذوبة السماء الضحوك ، والليـلة القمراء، والورد ، والصباح الجديد. وهذه التشابيه عبارات موحية تـكاد تكون قصائد قائمة بذاتها ، بما توحيه من ظلال ناعمة يتفيؤها القـارىء المتذوّق . وأدع للقـارىء ان يستشعر عمق هذه الـكلمات : السماء الضحوك ... الليلة القمراء... الصباح الجديد. ان القراءة الواعية لهذه القصيدة ، ولغيرها من قصائد الشاعر ، تؤكد لنا انه كان يعيش شعره بكامل أحاسيسه ، وانه ، لشدة حبه للطبيعة ، يكاد يذوب في جمالهـا السرمدي . ويغلب على صاحب هذا المزاج الرومانسي الذي يعبد الطبيعة ، ان يتخذ من مظاهرها وسيلة للتعبير عما في نفسه ، فهي ليست منفصلة عنه وانما نراها خلال آلامه وأفراحه، فاذا طغى الهمّ على قلبه كان أبرز المظاهر في شعره تلك الشاحبة الحزينة ، واذا أشرقت البهجة في قلبه ، وأطلّ البشْـر على آفاق حياته المتجهّـمة ، فان تصويره للطبيعة يكون حافلاً بهذه الصور التي تنسيه آلامه وتعزّيه في أحزانه . ولو ذهبنا نتتبـع هذه الحياة النفسية في شعر الشاعر لوجدنا الأمثلة العديدة، فهو في ثورته على شعبه ، تلك الثورة التي عبَّـر عنهـــا احسن تعبير في قصيدته « النبي المجهول » ، لا يجد ما ينقل الى شعبه ثورة نفسه إلا الرياح العاتية، والأعاصير الطاغية، لأنها أقدر على تحطيم جذوعه الخائرة البالية.

وفي قصيدته «إرادة الحياة» يستمد تلك الارادة الخالقة المبدعة من الطبيعة ويستوحيها من حكمتها الخالدة ، فيصوّرها في صورة من ينفر من الموتى لأنها تحب الحياة وتحب تجدّدها . وآية ذلك ، الربيع الذي يقبل بعد تعاقب الفصول ، فيبعثها من خمود ، ويطلقها من قيود ...

وفي قصيدة « الزنبقة الذابلة » ، لا يقف الشاعر حيالها لكي يصفها ، وانما ليلقي عليها تلك الأسئلة التي تعذب نفسه. فلا تصوير لهذه الزنبقة ، وانما هناك أسئلة يلقيها ليتحقق من مدى مشاركتها له في آلامه : لماذا تساورها اللوعة القاسية ؟ أمن صوت اللهيب الذي تفجر في قلبها الغض ؟ أمن الغروب الذي لوّن حياتها بجمرة العدم ؟ فاذا كانت أغاني الظلام قد أضجرت هذه الزنبقة ، فان أغاني الوجوم قد عذبت نفس الشاعر . واذا كانت السماء قد حبست عنها غيثها ، فان اللوعة الحارقة قد لزمت قلبه المسكين. ولئن أجج الدهر نحيب الدجىٰ في مسمعيها ، فقد ألقى في مهجة الشاعر شواظاً من اللهب المشتعل . انها لا تستوقفه إلا لأن قساوة الحياة قد وحَّدت بينهما ، فرمتها باللوعة الحارقة التي لا يطيقها قلبها الغض ، وفجَّرت في نفسه تلك الكلوم وأسمعته أنين الأمل . ومن هنا ينطلق هاتفاً :

إليَّ فقد وحَّدت بيننا قساوة هذا الزمان الظلوم
فقد فجّرت فيَّ هذي الكلوم كما فجرت فيك تلك الكلوم

انه لا ينظر الى الطبيعة الا من خلال عالمه الداخلي ، ذلك العالم الذي كان يموج بالألم والأسى. فالصحراء ساهمة الجمال لأنه ساهم « جمال الصحراء

الذي يمتد أمامي جبال ساهم محموم ، ولقد يخيل اليّ احياناً انه يفكر فيما وراء هذا العالم الصاخب الموار .. في معاني الفناء والموت والظلام ، ولقد يبلغ بي الوهم احياناً ان أحسبه نفساً شاعرة مسلولة ، تناجي في حمى السقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردية الموت » .

انها صورة لنفسه التي كانت تفكر في معاني الفناء والموت والظلام ، لنفسه المسلولة التي تناجي أحلامها الموشحة برداء الموت. وليس للصحراء أثر في هذه الصورة .

ان الطبيعة في هذه القصائد غير مقصودة لذاتها ، وانما هي إطار جميل جذاب يحيط بالصورة التي يريد الشاعر تصويرها، ولم تحتل الطبيعة قلب الاطار الا في قصيدة « أغاني الرعاة » .

وهي من أعمق شعر الطبيعة في الادب العربي، تدل على قوة في الخيال وعمق في التجاوب والتعاطف الذي كان يشعر به نحوها . وفيها تتجلى قدرة الشاعر على التشخيص الذي يبثُّ في معانيه حرارة الحياة وخفوقها. وهو صفة بارزة في اكثر ما أنشد الشابي من شعر ، وتجده في قصيدته « ارادة الحياة » التي تتحول فيها الطبيعة ، بأرضها ورياحها وغابها وليلها الى شخوص حية يحاذبها الحديث ويسألها عن حقائق الوجود :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة

وتهـادي النور في تلك الفجاج الدامسة
أقبـل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهـــاه
فتمطى الزهر والطير وأمواج الميـــاه
قد أفاق العـــالم الحيّ وغنّى للحياه
فافيقي يا خرافي واهرعي لي يا شياه
واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملئي الوادي ثغـاءً ومراحاً وحبور
واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يغشيه الضباب المستنير
واقطفي من كلاء الارض ومرعاها الجديد
واسمعي شبابتي تشدو بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبي كأنفـــاس الورود
ثم يسمو طائراً كالبلبل الشادي السعيد
واذا جئنا الى الغـــاب وغطانا الشجر
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضعته الشمس بالضوء وغدّاه القمر
وارتوى من قطرات الطلّ في وقت السحر
وامرحي ما شئت في الوديان او فوق التلال
واربضي في ظلّها الوارف إن خفت الكلال
وامضغي الأعشاب والأفكار في صمت الظلال

واسمعي الريح تغني في شماريخ الجبال
إن في الغاب أزاهيراً وأعشاباً عذاب
ينشد النحل حواليها أهازيجاً طراب
لم تدنّس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب
لا ولا طاف بها الثعلب في بعض الصحاب
وشذاً حلواً وسحراً وسلاماً وظلال
ونسيماً ساحر الخطوة موفور الدلال
وغصوناً يرقص النور عليها والجمال
واخضراراً أبدياً ليس تمحوه الليال
لن تَملّي يا خرافي من حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعب عذب جميل
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
يتمشى في ملال فوق هاتيك السهول
لك في الغابات مرعاي ومسعاي الجميل
ولي الإنشاد والعزف الى وقت الأصيل
فاذا طالت ظلال الكلإ الغضّ الضئيل
فهلمّي نرجع المسعى الى الحيّ النبيل

ولا بد ، لفهم الطبيعة في شعر الشابي ، من وقفة قصيرة على الفصل الذي عقده في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » .

ولقد كانت أغلب الدراسات التي قامت بها نخبة كريمة من الأدباء ناقصة، لأنها لم تلتفت في دراستها الى الآراء التي احتواها هذا الكتاب، وهي وحدها كفيلة بإيضاح الروح الشعرية التي تغلب على شعره. هؤلاء ذهبوا يلتمسون الطبيعة في شعره، ولم يدرسوا الرأي الذي اتخذ منه نبراساً يسير على ضوئه في كل ما أنتج، ولذلك ابتعدت دراستهم عن التركيز الصحيح. ومن الآراء التي نخالفها هذا الذي يرى في شعر الطبيعة ما يتصل بوطنيته برباط وثيق[1]. وأحسب ان شعر الطبيعة عند الشابي لا يدخل الوطنية الا من بابها الضيق، وما أشك في ان شعر الطبيعة ذو صلة بعيدة بالوطنية متى انصرف الى تصوير مشاهد الوطن، وغايته من ذلك تحبيبها الى مواطنيه، ولكن الطبيعة عند الشابي لا تحفل بالمشاهد التونسية، وانما تتغنى بجمال الطبيعة في مظهره العام، ولسنا نعثر في شعره المنشور على أية صورة لموطنه تحمل اللون المحلي ... بحيث اذا قرأتها قلت : هذه لوحة تونسية خاصة بتونس لا تتعدّاها الى غيرها من البلدان .

ونعود الى رأيه الذي أوضحه في كتابه « الخيال الشعري عند العرب »، بعد ان استعرض نشأة شعر الطبيعة في الادب العربي، فنلاحظ انه في هذا الرأي، يذهب مع الرومانسية الى الحد الذي يرى فيه ان الادب العربي كان واقفاً من الطبيعة « وقفة الاخرس الذي لا ينطق، والاعمى الذي لا يبصر أضواء النهار ». ثم يمضي في استعراض شعر الطبيعة في جميع

---

(١) كفاح الشابي — للاستاذ كرو ، ص ٨٧ .

عصور الادب العربي . فالشعر الجاهلي والأموي كان خالياً او كالخالي من الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ، او يصف الطبيعة في مجاليها الساحرة ومظاهرها الفاتنة .

اما العصر العباسي ، الذي بلغت فيه الحضارة العربية أقصى درجات النضج والاكتمال،فقد أتاح للأدب الاتصال بالشعوب،اتصالاً بثّ فيه الحياة، فظفر ادب الطبيعة فيه بمكانة ظاهرة . وللشاعر رأي في هـذا الشعر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى ، ولكن التعمق في فهم نفسيته والروح التي يصدر عنها ، يظهر لنـــا مبلغ صواب هذا الرأي ومكانه من الحقيقة . ومجمله : « ان الفن الطبيعي في الادب العباسي أبعـد نظراً وأعمق خيـالاً وأدق شعوراً منه فيالادب الاندلسي، رغماً عن ان الادب الاندلسي أحفل بهذا الفن من الادب العبـاسي ، ورغماً عن ان البلاد الاندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية ». ويعلل الشاعر هذه الظاهرة « بانغماس الروح الاندلسية في الحضـارة انغماساً اصبحت معـه الطبيعة في أنظارهم وسيلة خاصة من وسائل اللذة ، لا منبعاً خالداً من منابـع الالهام ، ولذلك كان الشعر الاندلسي رقيقـاً طلياً ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور . الادب الاندلسي ديباجة غضة ناعمة ، وتعابيره عذبة ناصعة، ووصفه دقيق جميل ، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة واحساس عميق » . وهو رأي يتفق مع آراء بعضالمستشرقين الذين لاحظوا ان الادب الاندلسي لم يحفل الا بمناظر الربيـع .

وتفسير هـذه النظرة التي يلقيها الشابي على شعر الطبيعة في الادب

العربي ، يجب ان نلتمسه في نزعته الرومانسية التي تعبد الطبيعة ، وفي التمييز بين احساس من يصف الطبيعة لأنه يراها، وبين من يصف الطبيعة لأنه يعبدها . وقد كان الاندلسيون عشاق لذة ولهو واستمتاع ، ولذلك لم يجد شعرهم صدى عميقاً لدى الشابي الذي كان يرى « ان النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة إزاء النظرة الغربية، مهما بلغت من العمق والشعور. وشعراء العربية لم يعبّروا عن احساسات شعرية عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحي الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمق وطراز جميل، وهي لا تزيد عن الاعجاب البسيط. ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر منها ان تشرق بالخيال الجميل ، لأن الخيال الشعري منشؤه الاحساس الملتهب والشعور العميق . وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة، الا شعوراً بسيطاً خالياً من يقظة الحس ونشوة الخيال » .

هذه لمحة قصيرة عن الطبيعة في ادب الشابي ، وربما كان من تمام هذه اللمحة ان نقدم الى القارىء قصيدة « أمل الشاعر » :

ليت لي ان أعيش في هذه الدنيا بعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات وبين الصنوبر الميّاد
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف نفسي عن استماع فؤادي
أتغنى مع البلابل في الغاب وأُصغي الى خرير الوادي
وأناجي النجوم والفجر والاطيار والنهر والضياء الهادي
عيشة للجمال والفن أبغيها ، بعيداً عن أمتي وبلادي

لا أعني نفسي بأحزان شعبي ، فهو يحيـــا في ظلمة الآباد
حسب نفسي من الأسى ما لديها من طريف مستحدث وتلاد
وعن الناس ، لا افكر في الناس ، ولا في حديث تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والافك ، ومن ذلك الهراء العادي
أين منه ، خرير تلك الينابيع الجواري وشدو تلك الشوادي
وحفيف الغصون نمّقها الطل ، وهمس النسيم للأوراد
هـــذه عيشة تقدّسها نفسي ، وأدعو لمجدها وأنادي

الحياة في شعر الشابي

هـذا شاعر امتاز بوضوح الشخصية وظهورها في شعره ، ومن كمال هذه الشخصية وأبرز مظاهر استقلالها ، ان تكون لها نظرة في الحيـــاة تنسجم مع مقوّماتهـا . وفلسفته ، او نظرته الى الحيـاة ، لا تستقل عن شخصيته ، بل هي موسومة بطابـع لا يمكن ان يكون لغيره . ولقـد بلغ من وضوحه وقوّته درجة تستطيـع ان تتبينه في من أثّـر فيهم الشابي . وليس أيسر من الاحساس بنغماته خـــلال عدد كبير من قصائد شعراء الشباب .

شخصية الشابي شخصية عاطفية انفعالية ، ومن هنا تخضع نظراتها في الحياة الى لحظات الانفعال ونوعه. فاذا كان هذا الانفعال باعثاً على الحزن والكآبة ، فان الحيـــاة ظلمة حالكة ، واذا كان باعثاً على التمرد والتجلد والطموح ، فان الحياة موكب فخم النشيد ، يسير في طريق المجد والعزة والكرامة . وأحسب انه من العسير ان نقسم هـذه النظرة الى مراحل ، لأن الشابي كان من الشخصيات القلقة التي لا تستريح الى نظرة معينة الى الحياة، فنظراته موجّـهة بلحظات الانفعال، ولذلك كانت مغايرة للنظرة العقلية الثابتة المفرغة في قواعد او مذاهب .

وحزن الشابي الذي ظهر في قصائده الأُول ، واجد تعليله في مرحلة

المراهقة التي تعيش في عالم من الاحلام ، وتتجه الى العكوف على الذات ، والاستجابة الى الخيال ، والآمال العريضة التي لا سبيل الى تحقيقها في دنيا الواقع . والرومانسية ـ بصفة عامة ـ فترة من فترات الحياة الانسانية ، وهي أقرب الى ارواح المراهقين ، بما يحيط بها من غموض محبب ، وكآبة لذيذة وخيال وقّاد. وقد استجاب الشاعر لمشاعر هذه المرحلة من حياته، فرأى الحياة معركة طاحنة لا مقام فيها للضعيف . وكان يملك تعليلاً لتلك الكآبة التي طغت على انتاجه الاول ، فيعبر عنه في قصيدته « ايها الليل » ، التي يذكر في بعض مقاطعها العوامل التي صنعت كآبته وكآبة كل أديب ، وغرست في نفسه الايمان بأن الحياة انشودة الحزن :

كن كما شاءت السماء كئيباً ، أيُّ شيء يسرُّ نفس الاديب ؟
أنفوس تموت شاخصة بالهول ، في ظلمة القنوط العصيب ؟
أم قلوب محطمات على ساحل لجّ الأسى ، بموج الخطوب ؟
انما الناس في الحياة طيور ، قد رماها القضا بوادٍ رهيب
يعصف الهول في جوانبه السود ، فيقضي على صدى العندليب

وفي هذه المرحلة من حياته كان متألماً باكياً على الحياة التي تنتهي بالموت، وقد وجد نفسه رازحاً تحت وطأة التفكير في تلك القضية الخالدة التي شغلت المفكرين ، فأرهقت الخيام ، وألقت المعري الى خضمّ من الشك، فقذف بنفسه الى التساؤل عن جدوى الحياة ونفعها ، ما دام الموت يجتثّ كل ما بنته وتعبت في إقامته الحضارة الانسانية :

أرى هيكل الايام مشيداً ، ولا بد ان ياتي على رأسه الهدم
فيصبح ما قد شيّد الله للورى خراباً ، كأن الكل في أمسه وهم
فقل لي ما جدوى الحياة وكربها وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو؟
وفوج تغذّيه الحياة لبانها ، وفوج غدا تحت التراب له ردم ؟
وعقل من الأضواء في رأس نابغ ، وعقل من الظلماء يحمله فدم ؟
وأفئدة حسرى تذوب كآبة ، وأفئدة سكرى يرفّ لها النجم ؟
لتعس الورى شاء الإله وجودهم ، فكان لهم جهل وكان لهم فهم

ان الألم الذي يقطر في كثير من قصائده الأُول ، انما هو نتيجة لخوفه من الموت، فلقد كان يراه شبحاً مخيفاً لا يبقي على شيء من آمال الانسانية. كان يخشاه حين كانت آماله في الحيـاة عظيمة ، فهو يحاذر ان تصل اليها يده القاسية التي تصيب أزهار الربيـع بالذبول ، وتجمد تغريد الشحرور ، وتغرس في قلب الأم لوعة حارقة :

ما للمنية لا ترقّ على الحيـاة النائحه
سيان أفئـدة تئنّ او القلوب الصادحه
يا شعر هل ُخلق المنون بلا شعور كالجماد ؟
لا رعشة تعرو يديه اذا تملّـقه الفؤاد

ولكننا نراه ، بعـد حين ، مقبلاً على الموت إقبـالاً إيجابياً واعياً ، راجياً ان يجد في صدره الراحة من هـذا العالم المظلم الذي جفّ سحره ، وغاضت ينابيـع الجمال فيه ، وذبلت أزهاره اليـانعة ، فأحسّ الشاعر

بالغربة بعدما نثر على العالم احلامه يسرة ويمنة ، وأخذ يتساءل عن الغاية من وجوده وسعيه في هذه الحياة :

ثم مـاذا ، انا صرت في الدنيا بعيـــداً عن لهوها وغناها
في ظلام الفنـــاء أدفن ايامي ولا استطيع حتى بكاها
وزهور الحيـاة تهوي بصمت محزن مضجر على قدميـا
جفَّ سحر الحياة يا قلبي الدامي ، فهيّـا نجرّب الموت هيا

ولقد كان يرى في الموت « ذوباناً في فجر الجمال السرمدي » . وهو في ذلك يشبه الشاعر الايطالي (ليوباردي) ، الذي كان يقول : « شيئان جميلان في هذه الدنيا : الحب والموت » . وكان يعتقد بأن هناك صلة قوية بين الحب والموت : الحب يولد أبهج ما في الحياة الانسانية ، والموت يلغي آلام الانسان في الحياة . انه يحب الموت ويهتف به ، ويتالم لأن الطبيعة لم تُضف عليه صفة رائعة ، وقد فعل هو مـا لم تفعله الطبيعة ، فصوَّره في صورة فتاة يستلطف المرء رؤيتها . على ان هـــذا التعلق بالموت ، الذي نجده في شعر الشابي، او هذه الايجابية، لا تكتفي بتعليل الطاقة الانفعالية المبذولة[1] ، وانما يختفي وراءها ايمان الشاعر بفكرة المثل الافلاطونية . واني لأستروح نسمات من هذا العالم تهبُّ على هذه المقطوعة، التي يخاطب بها صميم الوجود :

كنت في فجرك المغلف بالسحر فضاء من النشيد الهـادي
وسحاباً من الرؤى يتهـــادى في ضمير الآزال والآباد

---

(١) الشعر والموت ـ نازك الملائكة ـ الآداب البيروتية .

وضياء يعانق العـــالم الرحب ويسري في كل خافٍ وبادِ
وانقضى الفجر ، فانحدرت من الأفق الى صميم الوادي

ويختم المقطوعة بهـذا البيت الذي يرى في الموت تخلصاً من السجن ، سجن الجسم :

ليتني لم أزل كما كنت ضوءاً شائعاً في الوجود غير سجين

وإيمانه بهذا العـــالم هو الذي بذر في نفسه بذور الاحساس بالغربة ، وبثّ فيه اليقين بأن فنه لم يخلق للناس :

فافهمي الناس انما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد مَن عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون في ظلمة الاثم ، وعيشي في طهرك المحمود

وشعوره بالامتياز والتفوق، من أبرز الاسباب في هذه الكآبة العميقة التي تعـانق روحه . وكان لا يشكو شيئاً كما يشكو احساسه بالغربة ، او بمعنى آخر ، غربة المعاني التي يؤمن بها وينادي بتحقيقها . وحين أعيـاه العثور على القلب الذي يستجيب الى أغاني الحياة ، أخذ يعزّي نفسه :

انت من ريشة الإله ، فلا تلقي بفن السما لجهل العبيـد
انت لم تُخلقي ليقربك الناس ، ولكن لتُعبدي من بعيـد

وقد أوهمه ذلك ألّا مكان للصواب إلا في جانبه ، وانه وحده البصير بمعاني الحيـاة ، فانتهى الى كفر بحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها ، وإنـكار قيمة الحياة والشعور بعبث الوجود :

يا ايها الماضي الذي قد مضى ، وومضة الموت وليل الأبد
يا حاضر النـاس الذي لم يزل ، يا ايها الآتي الذي لم يلد
سخافة دنيـاكم هذه تائهة في ظلمـة لا تحد

ولماذا كانت دنيا الناس سخيفة ؟

لأنها كانت خالية من المثل التي يدعو اليها الشاعر ، ويؤمن بقدسيتها وجلالها . ولقد كان شاعراً مثالياً يعيش في عالم مغلف بالآمال والاحلام ، ويقيم في خياله مدينة شاعرية فاضلة . والمثالية شيء رائع ، وأروع ما فيها ايمانها بالمثلث الخالد : الحق والخير والجمال ، ولكن الدعوة اليها لا يقـدر عليها الا من أوتي صبر الأنبياء . ولقد عبدَ الشابي هذه القيم عبادة عميقة ، وأسبغ عليها من السحر ما جعلها كل شيء في حياته وفنه، واتخذها محراباً يتهجد فيه، حتى اذا وجد العالم غير مؤمن ـ في رأيه ـ بهذه المثل الروحية الخالدة ، كانت الصدمة عنيفة على روحه الشاعرة ، وكان اثرها شديداً على عبقريته ، فانطوى على نفسه ، لأن الحياة قد حجبت عنه وجه الحق :

كلما أسأل الحياة عن الحق ، تكف الحيـاة عن كل همس
لم أجد في الحيـاة نغماً بديعاً يستبيني سوى سكينة نفسي

انه حائر ،

انه حائر بين ايمان يدعوه الى التفوّق والسموّ والارتقاء، وبين مجتمع يشدّه الى المفاهيم العتيقة البالية .

حائر بين ارادة هائمة بالمثل الأعلى ، وبين قدرة ضعيفة تقعـــد عن

النهوض لتحقيق هذا المثل . انه محتاج في تحقيقه، الى الاستجابة والمساندة والفهم الصحيح ، وتلك امور لم تتوافر له في واقع الحياة . ومن هنا كان الوجود ، في رأيه ، شقاء سرمدياً وعناء خالداً ، وكانت الحياة مملة رتيبة يتمنى لو لم تكتحل عيناه بنورها ، لأنها في رتابتها وسآمتها ، تقتل أثمن ما في الانسان ، وهي الروح التي لا يذكيها شيء كما يذكيها الطموح الى التجربة ، تجربة الحياة كوسيلة للتفوق والنبوغ والابداع ، والتطلع الى الاختبارات والسير في موكب التطور الخالق :

يا صميم الحياة ، كم انا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي
في وجود مكبَّل بقيود ، تائه في ظلام شكٍّ ونحس
فاحتضني وضمني لك بالماضي ، فهذا الوجود علة يأسي

ولم تكن رومانسية الشابي مغلقة في نطاق ذاته وفي عالمه الداخلي ، ولكنها كانت رومانسية متفتحة على مشاكل قومه وقضايا الوجود الانساني، تلك القضايا التي كان يعيشها باحساس الفنان الذي يرى نفسه مسؤولاً عن الحياة الانسانية ، فاذا سئل عن سر كآبته أجاب :

بل هو الفن واكتئابه ، والفنان جم احزانه وهمومه
ابداً يحمل الوجود بما فيه ، كأن ليس للوجود زعيمه

وتتبُّع الظواهر التي تعيش في (قلب الشاعر) ، يؤكد ان الشاعر كان ينفعل بجميع مظاهر الحياة التي تزحف على قلبه ، ويحيا متأجج

متأجج الاحساس يحفل بالعظيم والحقير ، بما فيه من صور الحياة الوادعة والغاضبة الثائرة ، وصور الانسانية الخيِّرة والشريرة . ان هذا القلب يحتضن العالم بجميع صوره المتناقضة ولا يضيق بها ، ولكن هذه المظاهر ، التي تزيد في امتداد شخصيته وتعمل على تعميقها وتمنحها خصباً ، انما تزيد من تعاسته وكآبته ونقمته على الناس الذين لا يستشعرون ما فيها من جليل المعاني، ولا يهتزون لها ولا يفيضون عليها من عواطفهم مثلما يفعل الشاعر الذي كان يعيش الحياة بشعوره ، ويهيب بكل انسان ان يحياها بهذه الطريقة :

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وانها لتجف لو شيدت على التفكير

ومن هنا كان قلبه الموجّه لهذه الفلسفة ، وما اكثر ما يناجي الشاعر قلبه ، وما اكثر ما يتحدث عنه في شعره مستعرضاً العوالم التي تحيا فيه . فلقد كان « أنقى من الموج المضيء ومن نشيد العندليب » ، شديد التألم لمظاهر الحياة التي لا ترضيه . وكان يدرك ان علته انها جاءته من يقظة احساسه ، ذلك المبدأ الذي نادى به ، ورأى فيه وسيلة للتفوق وادراك معاني الحياة النبيلة :

والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي

وفلسفة الشاعر في جميع صورها الباكية والباسمة ، يجب ان تُردّ الى رقة احساسه، فهو ما شقي في الحياة الا برقّة احساسه ويقظة عواطفه،

تلك اليقظة التي كانت تبالغ في عبادة القيم الجمالية ، وتجعله « مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب » .

يقظة الاحساس هي التي خلقت لنا منه ذلك الشاعر الطموح ، الذي يعيش لآمال المستقبل وأحلامه ، ويرسل صرخات مدوّية داعية الى السير في موكب الحياة المتطورة . ويقظة الاحساس هي التي خلقت لنا منه هذه الشخصية الممتازة المتفردة بخصائصها التي تكره الذوبان ، فيما كان يفرضه المجتمع من تقاليد جائرة ظالمة تقتل الشخصية الانسانية ، وتقضي على خير ما فيها حين تشدُّها الى ظلمات العصور الغابرة . وطموحه وذاتيته المستقلة من أقوى العوامل الفعّالة في خلق هذه الكآبة التي صبغت شعره . على ان الشابي ظلَّ عميق الحب للحياة ، وليس تشاؤمه إلا صورة من صور النقمة على الأوضاع المريضة التي كان مجتمعه يعيش فيها . وهو ينطوي على الرغبة في الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة ، اكثر مما ينطوي على كراهية الحياة . ولعل قصائده الأخيرة خير معبّر عن هذه الروح التي تهيم بالحياة وتتعلق بها كما تريدها ، لا كما يريدها المجتمع المتأخر . ولذا كانت دعواته متجهة الى متابعة الزمن والتخلي عن الخوف والحذر :

فمن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

والشابي الذي كان صادقاً في التعبير عن شخصيته ، لم يشأ ان يخدع الناس عن الحقيقة الانسانية الكبرى الكامنة في التعلق بالحياة والهيام بها ، مهما كانت محفوفة بالخراب والآلام والاحزان ، فهي ابداً محبوبة لدى الانسان وليس التشاؤم الا ضرباً من الهذيان . وما اكثر الكارهين للحياة

ومـا اكثر الناقمين ، ولكنهم يحملون في أعماقهم حبها والتشبث بأيامها . ولقد كان الشاعر الايطالي (ليوباردي) يتغنى بالموت في شعره وكتاباته ، ولكنه لم يجد في نفسه القوة على مواجهة هـذا الموت الذي أحبّـه ، حين أخـــذ يحصد الارواح في (كوليرا) نابولي ، وكان مقيماً بها ، ففرَّ الى الأقاليم ، فكان فراره اعظم دليل على عبودية الانسان للحياة :

واذا التشاؤم بالحيـاة ورفضها ضربٌ من الهذيان والبهتان
ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحيـــاة الصادق الايمان

ومجمـل الرأي ، إن الكآبة التي تطغى على شعر الشابي ، انما صنعها عصره بما كان يشيـع بين شبابه من ألوان الحزن، وصنعها مزاجه الموروث وبيئته التي كانت ترسف في تقاليد الاجيال الغابرة ، وقراءاته الرومانسية ومرضه العضال .

أسلوب الشابي

كثيراً ما وقفت حائراً امام هذه الروعة التي تبدو في اسلوب الشابي ، وكثيراً ما تساءلت عن سر هذه القوة التي تسري في ألفاظه ومعانيه فتمتلك النفس الشاعرة ، فاذا هي ماخوذة بهذا السحر ، ماسورة بذلك الجمال .

أناقة التعبير ورصانته وأصالته ، هي الدعائم الاولى التي يقوم عليها اسلوب الشابي ، الذي امتاز ببعده عن النثرية السطحية التي أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة ، وخاصة شعراء المدرسة المهجرية . فهو اسلوب ينساب في عفوية وبساطة رصينة، بساطة من أدرك موضع اللفظ، ومدى قوته التصويرية والموسيقية . حتى اذا استولت عليه شهوة النظم ، تدفقت شاعريته في سماحة ويسر لا يشعران القارىء بأي مجهود الا بمقدار ما يشعرك النهر المتدفق نحو البحار بقوة النبع الذي يصدر عنه . وتلك صفة لا ينالها الا من عاش معنى اللفظ ، وأحسّ بما فيه من رصيد شعوري لا يقوم على الرنين اللفظي الذي يأسر الآذان ، ولكنه يقوم على العاطفة المتّقدة التي تنفذ الى أعماق الوجدان .

والوضوح هو الدعامة الاولى للبساطة، ولذا أجدني مخالفاً لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعمُّد التعابير الرمزية . وان شعره لمن الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح او اعنات القريحة في فك تعابيره . ومثل هذه

المحاولة خليقة بأن تؤدي الى افساد الأجواء النفسية التي تحيط بالفاظه ، لأنها ألفاظ عادية مالوفة تكمن قوتها في هذا الجو الشاعري الذي يوشحها بالسحر .

قوة اسلوب الشابي ليست في ألفاظه ، رغم براعته في استخدامها ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي العبقري ، ولكنها في قوة احساسه . انه اسلوب تحسُّه قبل ان تفهمه، لأن الروح التيتسري فيه تاخذ عليك طريقك وتحاصرك فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه . وقوة الاحساس هي كل شيء في فنه وشاعريته . هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة . وقد وجَّهته هذه القوة توجيهاً خطابياً ، فلم يستطع ان يتخلص من تلك الصفة التي أخذها على الشعر العربي ، ولم يقدر على التحرر منها . وأمثلة ذلك واضحة في كثير من شعره، الذي يشعرك بأنه واقف بين قومه يلقنهم تعاليمه او يصب عليهم غضبه ونقمته :

ايها الشعب ليتني كنت حطاباً فاهوي على الجذوع بفاسي
اذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
اين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ اين الطموح والاحلام ؟

وهي ظاهرة تصاحب أوزانه التي تلائم لحظة الانفعال ، وتنسجم مع نوع التجربة الشعورية. والشابي موفق كل التوفيق في اختيار الاوزان

التي تلائم عواطفه وتسبغ على تعابيره جواً من الموسيقى العميقة . فهو نغم هامس حزين في « الصباح الجديد » ، ثائر صارخ متمرد في « النبي المجهول » و « ارادة الحياة » و « انشودة الجبار» ، وهو نغم وديع هامس في « صلوات في هيكل الحب » .

فقد كان الشابي عميق الفهم لهذا اللون من الأداء الفني الذي يقوم عليه كل اسلوب رفيع ، فيقول في تحديده : « هو هذا الاسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة ، حينما يمثل سخط الحياة وثوران العواطف ، ويكون وادعاً كضوء القمر حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكينة النفس ، ويكون رقيقاً شجياً كانات ناي بعيد ، حينما يمثل أحلام الحياة ونجوى القلوب المتحابة ، ويكون كئيباً مظلماً كقلب الظلام ، حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر » .

الشابي شاعر فنان .

وفي هذه الصفة تميز له عن غيره من الشعراء الذين يعيشون الحياة بحاسة واحدة . اما هو فقد كان يعيشها بجميع حواسه ، وتلك صفة لا تتأتى الا لمن كان في مثل حساسيته المرهفة وعاطفته وسعة آفاقه . وصفة الفن بارزة في اغلب ما تناوله هذا الشاعر ، فقد كان يستخدم في شعره مرقم الموسيقي ، وريشة الرسام ، وتعبير الشاعر الفحل . ولا يعسر على المرء ان يستخرج من هذا الشعر الرائع صوراً فنية فاتنة ، عمل الخيال في تلوينها وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة . وتستطيع ان

تحس بذلك في استعاراته وتشابيهه التي تعرض على القـــارىء ، في جملة قصيرة ، لوحة باذخة تنسجم فيها الأضواء والظلال .

ومن ذلك هذه الصورة التي يرسمها لمعبد الحب :

وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبــداً للجمال والحب مشيداً على فجـــاج السنين
تحته يزخر الزمـان ويجري صامتاً في مصبه المحزون ...
وتمرُّ الآلام والحزن والموت ... بعيـداً عن ظله الميمون
معبداً ساحراً يتوّجه الزهر على الصخر والثرى والغصون
كل زهر يضوع منـه أريج من بخور الربيع جم الفتون
ونجوم السماء فيه شموع أوقدتهـــا للحب روح القرون

وهذه الرؤيا التي تطالعه في عيني حبيبته :

زمر من ملائك العــــالم الأعلى يغنون في حنوّ حنون
وصبـايا رواقص يتراشقن بزهر التفـــاح والياسمين
في فضاء منور حـــالم ساهٍ أطافت به عذارى القرون

وتلحق بهذه صور اخرى تضاهيها في الروعة والجمال ، وتعيـد الى ذهنك لوحات المبدعين من الرسامين في عصر النهضة ، بما فيها من وجوه ملائكية وديعة :

لا الجن يرقص فوقها متغنياً للنـاس بين جداول وزهور
متوردُ الوجنات سكران الخطا يهتز من مرح وفرط حبور

متكللاً بالورد ينثر للورى أغصان ورد اللذة المنظور
كلا ولا الفن الجميل بظاهر للناس تحت غمامة من نور
متوشحاً بالسحر ينفخ نايه المشبوب بين خمائل وغدير
او يلمس العود المقدس واضعاً للموت ، للاحلام ، للديجور
ما في الحياة من المسرّة والأسى ، والسحر واللذات والتغرير

وهو يستعين في ذلك بقدرة خارقة على الإيحاء والتأثير على القارىء، بحيث يضع امام بصره في تعبير بسيط ، صورة لا نهاية لروعتها. واسلوبه تصويري تتعانق فيه الصور وتتلاحق في موكب فخم ، وهو مسرف في نثر هذه الصور ، ولكنه الاسراف الذي يدل على الوفر والغنى ولا يدل على الجهد والعناء . فانظر كيف تتلاحق هذه الصور الرائعة في تشبيه ايام الطفولة :

ايام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

والتجسيم او التشخيص احدى الملكات التي يتمتع بها الشابي ، وتساعده على ابراز معانيه والتعبير عما في نفسه. ويتجلى ذلك في احساسه بالطبيعة ، ذلك الاحساس الذي يجعل منه شخصاً يشاركه ويبادله الشعور بأفراح الحياة وآلامها . ففي أغنية « الرعاة » يبث في الطبيعة حياة، فاذا الصبح يقبل ، والنور يتهادى ، والربى تحلم ، والصبايا ترقص ، والزهور والطيور والامواج تتمطى ، والنسيم ساحر الخطو وموفور الدلال ،

والريح تغني ، والشمس ترضع بالضوء ، والقمر يغذي . ومبعث هـذا التشخيص خيال مجنح وشعور يقظ ، يخلعان على المناظر والأحياء ثوب الحياة .

انه شاعر كان يعيش حياته باحساس الفنان، وإكثاره من الاشارة الى الموسيقى يدل على مدى تعلّقه بهذا اللون من الفن الجميل ، حتى ليرتفع في تمجيد فاتنته الى عالم من النغم فيراها قطعة من فنون السماء :

فتمايلت في الحياة كلحن عبقري الخيال حلو النشيد
وتهادت في أفق نفسك أوزان الحياة ورقّة التغريد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في وقفة وقعود
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجع ناي بعيد
كل شيء موقع فيك ، حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

ونحب ان نؤكد ان الحكم على اسلوبه ، انما أقمناه على اساس من تجاربه الشعرية الاخيرة الناضجة ، التي تحدّدت فيها شخصيته ومعالم اسلوبه وطريقته في الأداء ، ودلّت على الطريق الذي سيسلكه لو قُدّر لعبقريته ان تنمو وتعيش . ومن الواضح انه لا يسري على تلك القصائد الأُول التي نظمها في مرحلة التكوين والمحاولة ، وإن أخْذ الشابي بأخطاء هذه الفترة ينطوي على تحامل وإسراف في الظلم . ولا بد من التذكير بأن العمر الشعري لهذا الشاعر لم يتجاوز سنوات قليلة ، وذلك هو مظهر القوة والأصالة فيه ، فهو رغم عمره القصير ، استطاع ان يكون مدرسة وحده ، وان يدمغ كثيراً من الشعراء بطابعه الواضح القوي العميق .

المرأة في شعر الشابي

من النماذج النسائية التي تستأثر بإعجابي ، هـذا النموذج الذي أبدعته عبقرية الشاعر الخـالد « هوميروس » في ملحمته المشهورة « الاودسة » . نموذج المرأة الوفية ، وتتمثل أبدع معـــانيه في « بنلوب » .. الزوجة الحسناء التي ترمي المقادير بزوجها في أماكن نائية ، فتنقطع أخباره عنها، ولكنها تقيم على وفائها له سنوات عديدة ، ولا تتحول عن حبهـــا رغم اغراء العشاق الذين تزاحموا على قصرها ، رجاء الفوز بيدها ، بعـد ان علموا بغيبة زوجها البطل ، وأمنوا بطشه . فلمـــا ركبها الضجر من ملاحقتهم لها ، لم تبخل عليهم بالوعود والأماني ، فاحيت نفوسهم بخدعة بارعة أنقـذتها من شرهم ، اذ اتخذت لنفسها منسجاً ، وأوهمتهم انهـا متى أتمت نسج كفن لوالدها فهي لا بد متزوجة بواحـد منهم . وبدأت تنسج وتنقض في الليل ما نسجته في النهار ، ولكن سرها يفتضح ، وتجد نفسها مرة اخرى امـام إلحاحهم ، فتسعى الى وضع حد لهذا العبث الماجن بأن تعرض عليهم قوس زوجها وسهامه ، فمن استطاع ان يثنيها فيرسل منها سهماً يخترق حواجز حديدية معينة ، فهو صاحبها . فلم يستطع احد ان يفعل ذلك ، وهنا يعود زوجها اودسيوس ، فيثني القوس ويرمي السهم، ويفتك بتلك العصبة من العشاق ، ثم يلقي بنفسه في أحضـــان زوجته

الوفية، التي صانت عهده وبقيت على طهرها وعفتها هذه السنين الطويلة، ليس لها من أنيس إلا هذا الايمان العميق الذي يغمر جوانحها بعودته القريبة .

هذا نموذج للمرأة الوفية في الشعر القديم ، حاولت ان أجد له مثيلاً في شعرنا القديم ، فما استطعت ، ذلك لأن الشعر العربي القديم لم يكن يحفل بمثل هذا النموذج ؛ فقد غاب نموذج الزوجة الوفية، ونموذج الاخت الحنون والأم الرؤوم في زحمة نماذج المرأة المعشوقة ، التي كانت كل شيء في الشعر العربي القديم . ولقد بلغ من أهميته وسيطرته على النفوس ، أن اصبحت القصائد لا تعذب في السمع ، ولا يحسن وقعها في القلب ، ولا تجد طريقها الى الروح الا اذا كانت مفتتحة بالنسيب ... وانه لمن المحزن حقاً ، ألا نجد في الشعر القديم ما يرفع من قيمة المرأة، ويعبر عن الجوانب السامية فيها .. فلسنا نعثر فيه على نموذج كهذا النموذج الذي أبدعه دانتي في بياتريس ، تلك الفتاة الوديعة التي اصبحت في شعره مثالاً للفضائل الانسانية حين أضفى عليها خياله ، مما جعله يردد قول هوميروس : « انها لا تبدو ابنة بشر ولكنها ابنة إله » ... « وانها ما جاءت الى هذا العالم الا لكي تشيع الطهارة فيه ، وما غادرته الا لأن السماء في حاجة اليها ، وان المدينة قد تيتمت بعد موتها » .

ان هذه المآخذ التي تسجل على الشعر القديم ، لا تغطي على تلك الأمثلة الرائعة التي تشرق في تاريخنا ... فان في هذا التاريخ الخالد أمثلة عظيمة للمرأة في أرفع مواقفها الانسانية ، ولكن الشعر لم يفطن الى هذه

النماذج. ومن ذلك هذا المثل الذي يقف في عزة وشمم فيغطي على «بنلوب»، لأن جذوره تضرب في الواقع الصحيح ... فافهموا هـذا ، يا من تسيئون الظن بالمرأة ، ولا تذكرون لها الا الجوانب السيئة . وافهموا هذا ، يا من ترددون في غفلة : ان المرأة شر ... وهل المرأة شر ؟ اما انا ، فلا أجدني مؤمناً بهذا القول ، لأنني اذا أقررته فلا يبعـدني عن الشر ، بل يضعني في صميمه ، لأن المرأة امي ، والمرأة اختي ، والمرأة ابنتي .. وما معنى هذا ؟ معناه انني ابن الشر ، وشقيق الشر ، وقرين الشر ، ومنجب الشر ..

ثم اقرأوا معي في إجلال ، هذا النموذج الرائع الذي غفل عنه الشعر ولم يغفل عنه التاريخ .. انهـا نائلة ، زوجة عثمان رضي الله عنه ، تـكاثر عليها خطّـابها ، بعد مقتل زوجها ، فأبتهم جميعاً . ولما خطبها معـاوية ابن ابي سفيان قالت : وما أعجب امير المؤمنين مني ؟ قيل لهـا : حسن ثغرك ـ وكانت احسن النساء ثغراً ـ فدقت ثنـاياها وقالت : أذات ثغر تراني بعد عثمان ؟...

وهـذا مثال آخر يحدثنا به الاصمعي ، نذكره مع شيء من التحفظ والاحتياط. وهو مثال اذا فاته جمال الحقيقة، فلن يفوته جمال الاسطورة المعبرة عن أشواق النفس الانسانية في أروع صورها :

قال : رأيت بالبادية اعرابية لا تتكلم ، فقلت : أخرساء هي ؟ فقيل لي : لا ، ولكن كان زوجها معجباً بنغمتها ، فلمـا توفي أطبقت فمهـا فلا تتكلم بعده ابداً [1] .

---

(١) المرأة العربية — لعبدالله عفيفي .

هذه النماذج لم يقف الشعر العربي عندها. واني لأبحث في شوق زائد، عن نموذج يمثــل الأم في حنوّها وعطفها ، او يصوّرها وهي تحتضن رضيعها ، فلا أجد . حتى نموذج المرأة العشيقة ليست له سمة خاصة ، او ظاهرة مميزة ، فكلهن في ميزان الشعراء خصر نحيل ، وخدٌّ أسيل ، وردف ثقيـل ، وغير ذلك من المحاسن الجسدية . اما المعـاني السامية في المرأة ، امـــا عواطفها وأحاسيسها ، فذلك امر لا نعرف له بداية الا في شعرنا المعاصر، هذا الشعر الذي لم يعد يستكثر على المرأة الديوان الـكامل، ينظمه في تمجيدها والسموّ بهـا عن تلك النظرة السيئة ، نظرة العصور القديمة اليها .

لقد كان المجتمع العربي في تلك العصور ، يستمد قيمه الاخلاقية من منطق القوة . ومن هنا كانت مكانة الضعيف فيه ، مكانة مهينة مزرية ، بالغة حدها من الانحطاط والضعة. والمرأة في ضعفها، لم تستطع ان تكون قوة فعالة في الدفاع عن القبيلة ، فأنزلها ضعفها منزلة المتـاع ، فتعرضت للسبي ، واصبحت تُغنم و تُباع كأنها ثروة مادية . ولقد جنت عليها هذه النظرة ، جناية تسلسل أثرها مع التـاريخ . وعلى الرغم من الحقوق التي منحها الاسلام للمرأة ، فقـــد بقي العرف ينظر اليها نظرة القوي الى الضع ، . وزاد من ضآلة قدرها وهوانها على النـاس ، ما كان من شيوع التسري و الرقيق .

وربما كانت نظرة الشعر العربي في عصوره الاولى ، نظرة أدنى الى القصد والاعتدال ، لأن النظرة العربية كانت بريئـة وشريفة ، وخاصة

عندما شاع هذا الغزل العذري في الحجاز ، وتلك نغمة جديدة كان للدين الجديد أقوى الأثر في إيقاظها ورفعها عن شوائب الجسد ، ولكن هذه النغمة الرقيقة لا تلبث ان تضيع في فساد العصور التالية، التي جعلت من المرأة لذة رخيصة فحسب . فحجبتها عن الحياة ، وحرمت المجتمع اجمل مباهجه وأعظم قواه الدافعة. وكان من نتيجة هذا البعد الذي فرض عليها أن لازمتها نظرة سيئة ، ولاحقتها لعنة ابدية ، تتهمها في براءتها ونزاهتها وتجردها من كل عاطفة كريمة ، فاصبحت مثالاً للغدر، والدس ، والخسة، والنذالة، والكيد ، ولم يبق لنا في الشعر الا نموذج المرأة الهلوك ، والمرأة العشيقة. وكتاب «ألف ليلة وليلة» أبلغ شاهد على نظرة العصور المتأخرة الى المرأة .

وقد ظلت مكانة المرأة على هـــذه المهانة وانحطاط المنزلة ، تحوطها العماية ويغلفها الجهل، حتى كانت بداية هذا القرن ، حين استيقظ الشرق على صوت الخطر الزاحف ، المتمثـــل في الاستعمار الغربي ، الذي دفع المصلحين الى البحث عن اسباب الواقع الفاسد المرير الذي يعيشون فيه ، فكان من أبرز الاسباب وأظهرها .. مكانة المرأة .

ومن هنا تضافرت الجهود ، لتصحيح هذه المكانة وردّها الى الوضع السليم ، ذلك الوضع الذي يقضي بـه منطق الكرامة والتقدم ؛ فكانت في مصر دعوة قاسم أمين ، التي زلزلت كيان الرجعيين وشملت في امتدادها الشرق كله . كانت دعوة تهدف الى تحرير المرأة من الجهل ومن الحجاب، وكان سلاحهـــا أن لا سبيل الى رقيّ الشرق الا برقيّ نسائه . فالمرأة في

جهلها ، لا تستطيع ان تنشىء جيلاً متعلماً ، يفهم حقيقة الحياة ويقدّر قيمة التضحية . وهل تنتظر من ناشيء ، جهلت امه معنى الامة ، ومعنى العزة القومية ، ومعنى الكرامة الوطنية ، ان يشبّ هو على الايمان بها ؟. وقد ساير الشعب العربي المعاصر هذه الدعوة ، فكان متحفظاً في مصر ، وكان متحرراً مندفعاً في العراق . كان متحفظاً عند شوقي وحافظ، وكان متحرراً عنيفاً عند الرصافي والزهاوي . وبين التحفظ والتحرر كان موكب التقدم يزحف على أنقاض الجمود ، وسيظل في زحفه حتى تبلغ المرأة ما يراد لها من تقدم وتطور .

ظفرت المرأة بعناية الشعر المعاصر الذي شارك في الدعوة الى تعليمها وتحريرها ، فكان شوقي يردد :

وإذا النساء نشأنَ في أُمّيةٍ   رضع الرجال جهالة وخمولا

وكان حافظ يهتف بهذا البيت الخالد :

الأمُّ مدرسة اذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الاعراق

وكان مطران يرسل هذه الحكمة :

إن لم تكن أمٌّ ، فلا أمة   وانما بالأمهات الأمم

اما في العراق ، فقد كان الرصافي ثورة جارفة ، وتمرداً عاصفاً ، ودعوة لا تعرف اللين او الهوادة :

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا   جميع نسائنا قبل الممات
حجبناهنَّ عن طلب المعالي   فعشنَ بجهلهنَّ مهتكات

وقالوا ان معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا شرعة الاسلام تقضي بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الاسلام كذباً تزول الشمُّ منه مزلزلات

ومن الظواهر التي يقلّ الجدال فيها، ان واقع المرأة العربية في بداية هذا القرن ، كان واقعاً متشابهاً في جميع أقطار الشرق، وانما كان التفاوت بعد ذلك نتيجة لما أصابه كل شعب من التقدم والرقي . وهذه حقيقة نمهد بها للحديث عن المرأة في تونس . فقد كان حالها كحال شقيقاتها في جميع الاقطار العربية ، كانت بعيدة عن العلم ، بعيدة عن الحياة . وكان لا بد للمصلحين ان يلتفتوا الى هذه الناحية البارزة من حياة امتهم ، فتوالت صرخاتهم وصيحاتهم داعية الى النهوض بالمرأة . وقد تمثلت هذه الدعوة على أتمها ، في رائد بارز من روّاد النهضة التونسية الحديثة .. هو الطاهر الحداد صاحب كتاب « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » . وقد تألّب عليه أنصار التخلف ، كما تألبوا على غيره من اعلام الاصلاح ، ولكن دعوته ما تزال حية في القلوب ، وما تزال قوة دافعة في حياة مجتمعه الجديد .

هذه هي مكانة المرأة في عصر الشابي ، وتلك نظرة المجتمعات العربية ... فما مكانها من شعره وحياته ؟

هذه الكلمة محاولة لتحديد مكانة المرأة في حياة الشابي وشعره . هي محاولة ، لأن حياة الشابي ما تزال غامضة مجهولة لا نعلم من تفاصيلها الا اشياء باهتة قد لا تفيد الدارس كثيراً ، والجهل بهذه الحياة الخصبة الواهبة نتيجة من نتائج الجحود الذي لا يتفرد به الشابي ، ولكنه نكبة النابهين

والنابغين في الشرق، حتى ليعسر معه ان نعرف دخائل نفوسهم، وندرك الادوار التي مرَّت بها حياتهم، منذ نشأتهم حتى بداية التفتح فاكتمال النموّ وتألّق النبوغ . وتلك جنـــاية من جنايات التحفظ الزائف والوقار المصطنع والتقاليد البغيضة، التي تأبى على العبقري ان يعيش حياة انسانية كريمة، ثم تأبى على محبِّيه ومقدِّري نبوغه، ان يعرفوا هذه الحياة البائسة في تفاصيلها ، بعد ان يغيِّبه القبر .

وجهلنا بتفاصيل حياة الشابي، وخاصة ما يتصل منها بالمرأة ، يبعدنا عن الخوض في هـذا الموضوع الذي لا نستطيع ان نبنيه على اساس من الواقع الصحيح . وغاية ما نقدر عليه ان نقيمه على الظن والتخمين، وما كان الظن وسيلة من الوسائل الناجحة في البحث . على ان هنـاك حقيقة واضحة ، هي ان الشابي عرف المرأة ، فقد تزوج وأنجب اطفالاً . ولكن الغموض يحيط بالطريقة التي تمَّ بها هذا الزواج ، هل كان استجابة لرغبة خاصة أم اذعاناً لرغبـــة اسرته ؟؟ ولا أستبعد ان يكون زواجه غير مفروض عليه، لما نعلمه فيه من ثورة على التقاليد ونقمة على مظاهر الحياة القديمة . ومن العسير ان يؤمن الانسان بإذعان الشابي للارغام، لأنه بذلك يكون قد تنكَّر لأسمى المبادىء التي عاش من أجلهـــا ، الا اذا ارتضينا التفسير القائل بإقدام الشاعر على تجربة الموت[١] .

هذه ناحية يحيط بها الغموض .

على ان الشابي – رغم زواجه – ظلَّ يتشوق في شعره الى المثـال

---

(١) حصاد القلم – لأبي القاسم كرو (١١٧) .

الذي يرضي طموحه ، ويشبع روحه . والشعر الذي قاله في المرأة ، لا نستطيع ان نعثر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التي تتفرد بها . أقول هذا وأنا على بيِّنة من المذهب الذي اتبعه الشابي في شعره ، فقد أخذ على الشعراء القدامى سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التي تميِّز امرأة عن اخرى. ولو كانت هناك امرأة معينة تختفي وراء هذا القصيد ، لما صحّ ان تترك شعره دون ان تسمه بميسم خاص ، يستطيع معه القارىء التعرّف الى شخصيتها بوضوح .

وثمة حقيقة يخطىء فيها كثير من الباحثين ، هي عدم تمييزهم بين النغمة التي تصدر عن الحرمان ، فلا تصوّر الا اللهفة والحنين والشوق ، وتسبغ على المحبوب كل صفات الرقة والجمال ، وبين النغمة التي تصدر عن الحب ، حب الذي عرف المرأة وعاشرها ففهمها وفهم طباعها، فلم يزد في التشبيب بها على وصفها بصفاتها المميزة لها .

شعر الشابي صادر عن نفس محرومة ، فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين الى تلك التي تنقذه من جهامة ايامه ورتابتها المملة. ولذلك أجدني مع القائلين بأنه كان يتغنى بالمرأة كمثل اعلى ، لا امرأة معينة . وقصيدته الرائعة « صلوات في هيكل الحب » ، لا تصوّر امرأة قدر ما تصور نفسه ونزوعه الى الحب البريء الطاهر ، الذي يرفع المرأة عن النظرة القديمة التي يراها الشابي « دنيئة سافلة ، منحطّة الى اقصى قرار من المادة ، لا تفهم من المرأة الا انها جسد يُشتهى ، ومتعة من متع العيش الدنيء . اما تلك النظرة السامية، التي يزدوج فيها الحب بالاجلال، والشغف بالعبادة.

اما تلك النظرة الروحية العميقة ، التي نجدها عند الشعراء الاوروبيين ، فانها منعدمة كلياً او شبه منعدمة في الادب العربي كله ، لا استثني الا الأنذر الأقل ، على الرغم من ان اكثره في المرأة ... لم يعرف العرب ، ولا الشاعر العربي ، تلك النظرة الفنية التي تعدّ المرأة قطعة فنية من فنون السماء يلتمس منها الوحي والالهام . ولم يحاول الشاعر العربي ان يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة ، تحمل بين جنبيها سعادة الحب ، ومعنى الأمومة ، وهما أقدس ما في الوجود . ولا بذلك القلب الذي يزخر بأسمى عواطف الحياة وأروع أشعارها ، وأجمل احلام هذا العالم الكبير . ولا شعر بما بين هاته الطبيعة الكبرى وبين المرأة من اتصال وثيق ، حتى كأن قلبها الانساني الذي يحمل بسمة الفجر ويأس الظلام ، ذلك شأو لم تحلّق فيه أجنحة الشعر العربي ولا نالته ، بل لم يفتح اليه بصره الذي ألف مغاوره المظلمة وكهوفه الضيقة ، بل ان الشاعر العربي لم يرفع بصره الى ما هو أدنى من ذلك بكثير ، فهو اذا تحدث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفنّ مستقل متجرّد من هاته الظاهرة المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوهما ، وانما تحدّث عن الجمال المتهدّل ، الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم واللحم ، كأنما الجمال جسد يحس ومادة تمس » ...

وما دام الغموض يحيط بالمرأة في واقع حياته ، فلم يبق لنا الا ان نلتمسها في شعره . قبل ذلك يجب ان نعرف ان شخصية الشابي كانت شخصية رومانسية ، نزّاعة الى المثالية في كل شيء ، مؤمنة بالعاطفة ،

مستخفة بالعقل . ومن هنا كان حبه للمرأة ونظرته اليها من ذلك النوع الذي تختلط فيه العفة بالتصوّف ، فاذا المرأة في منزلة العبادة .

ومصدر هذه النظرة عند الشابي ، حرمان فرضته البيئة والتقاليد ، التي حالت دونه ودون الانطلاق والتحرر ، فكان من ذلك هذا النغم الحزين ، وهذه الضراعة للحبيبة حتى ترحم الشباب الذاوي ، والقلب المتهدم ، والشاعر الذي يسلك طريق الحياة كالشارد الهيمان ، والبيئة التي ينطلق فيها صوت المصلح الاجتماعي مردّداً هذه الكلمات العظيمة : « اذا كنا نحتقر المرأة، ولا نعبأ بما هي فيه من هوان وسقوط، فانما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا ، ورضائنا بما نحن فيه من هوان وسقوط . واذا كنا نحبها ونحترمها ونسعى لتكميل ذاتها ، فليس ذلك الا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا ، وسعينا في تكميل ذاتنا »[1] . مثل هذه الصيحة لا بد ان يدعمها الفن، ولا بد ان تجد التعبير عنها في قصائد الشعراء الملهمين. فكانت صلاة الشابي في هيكل الحب ، وهي أرفع صلاة تُوجَّه الى امرأة في أدبنا العربي ، قديمه وحديثه ، لما تحفل به من ومضات انسانية رائعة ، وسموّ في النفس، وارتفاع عن شوائب الجسد. ولا شك في ان هذا التمجيد الذي نالته المرأة في شعر الشابي، ليس سوى ردّ فعل على مجتمع لا يرى فيها ما يراه هو ببداهة الشاعر الفنان، من المعاني السامية، فأراد ان يكشف لهذا المجتمع عما في قلب هذه المخلوقة الضعيفة من عواطف رقيقة، ومعانٍ نبيلة، وقوة دافعة ملهمة .

(١) امرأتنا في الشريعة والمجتمع — الطاهر الحداد .

وكان في تساميه ، مستجيباً الى النزعة الرومانسية التي كانت مشغولة بالقضايا الانسانية الكبرى ، منصرفة الى الحقائق والقيم الاخلاقية العليا ، عازفة عن التوافه العارضة الزائلة لإيمانها بأنه :

غير باق في الكون الا جمال الروح غضاً على الزمان الأبيد

وذلك هو « الجمال المنشود » الذي كان يبحث عنه الشابي . انه لا يهتم بالغدائر المسترسلة ، والخدود المورّدة ، والشفاه الباسمة، والعيون الحالمة ، والنهود المهتزة، وكل صور الفتنة النسائية، الا بمقدار ما تشف عن طهارة الروح ، ونقـــاء القلب ، فليس تعلقه بها قائماً على المحاسن الجسدية ، ولم يكن مشغولاً بما ينطوي عليه كيانها اللافح من حرارة ، ولكنه كان منصرفاً الى ما في جوانحها من معاني الأمومة والعطف والمحبة، تلك المعاني التي افتقدتها في واقع الحياة . انه يعشقها ويعشق فيها هـذه المعاني التي ضاعت منه في معركة الحيـاة القاسية ، وهي وحدها قادرة على ان تردها اليه ، وتعيد الى نفسه طمأنينتها وتسبغ عليه أمنها وسلامها ، فما هبطت الى هذه الارض الا لكي تحيي هذه المعاني في النفوس ، وهو لا يطلب منها وصالاً كهذا الذي اعتـدنا سماعه من كثير من الشعراء ، ولكنه يرجو ان تمنحه الأمن والراحة والعطف الروحي ، وان يعيش في ظلها :

عيشة للجمال والفن والالهـام والطهر والسنى والسجود
عيشة الناسك البتول يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد

ليس أيسر من الشعور بالجمال المـاثل في المظاهر الجسدية ، انه جمال لا يعسر ادراكه او الاحساس به حتى على أولئك الموغلين في الجهـــالة

والبلادة والغلظة ـ فذلك نداء الغريزة لا تخطىء في الاستجابة اليه. وليس أشق ولا أصعب من الاحساس بالمعاني الجميلة الساحرة التي قد تشفّ عنها المرأة ، تلك صفة تحتاج الى عمق في النفس ، ونفاذ في البصيرة ، ورقة في الشعور ، وفهم لحقائق الحياة الانسانية وجوهرها . ومثل هذه الحقائق نجدها بارزة في رائعته « صلوات في هيكل الحب » . انها قصيدة خالدة تبلغ حداً من الابداع تطغى معه على جميع ما قيل في تمجيد المرأة في الشعر العربي ، اذ تمتاز بهذا التسامي والتصوف ، ولا تعبأ الا بالمعاني الروحية التي توحيها المرأة. ومبعث الحرارة التي تسري في هذه القصيدة فشل الشاعر في تحقيق مثال المرأة الذي يريده في واقع الحياة . فلا مناص له من ان يعيش في خياله مع المرأة التي أقامها إلهة، يرتل في هيكلها المقدس تسابيحه وصلواته الحارة ، صلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة، العابد للرواسب البالية التي تنحر الشخصية الانسانية . انه ينشد المثال الذي لم يوفره له المجتمع . وهذه الفاتنة تحتل من قلب الشاعر المكان الذي احتلته بياتريس من قلب دانتي الذي يقول فيه الكاتب الايطالي المعروف « بابيني » : « ان حاجة دانتي الى عبادة مخلوق كامل ، ناجمة عن روحه الحساسة ، فلقد كان عصره حافلاً بصور الشر، كما كانت مدينته غارقة في ألوان من الحروب المبيدة ، فكان يلتمس لنفسه مهرباً من هذا العالم الفاسد الغارق في الرذيلة ، فلم يجد الا هذا النموذج الذي أبدعه خياله، وأفاض عليه من صور الجمال كل رائع فتان ، نموذج ملائكي يوحي بالرقة والانعطاف ، ويسمو على القبح والابتذال

بمنحه العطف في عالم محفوف بالخراب ، ويسبغ عليه الرحمة في دنيـا كلها حقد ولؤم » . ولا يعسر على الباحث ان يستخرج مثل هذه الحقائق من قصيدة الشابي .

سجّـل الشابي، بهذه القصيدة، اتجاهاً جديداً في الادب العربي، وخرج عن مالوف الشعر الذي كان يهتم بالمحاسن الجسدية . ويلاحظ هنا ان شعراء العصر الحديث ، من الذين ناصروا قضية المرأة ، كشوقي وحافظ وغيرهم ، لم يتحوّلوا عن الطريقة القديمة في افتتاح القصيدة بالنسيب، كما ظلّ غزلهم مشدوداً الى الشعر القديم باوصافه وتعابيره، حتى لكأنهم لم يحسوا بالعصر الذي يعيشون فيه .

ومن مصادر نظرة الشابي الى المرأة ، القراءات التي أدمن عليهـا ، وأغلبها من ذلك النوع الذي يرضي نزعته العاطفية، انه انتاج رومانسي. فكان جبران يغذي خياله « بسلمى » بطلة « الأجنحة المتكسرة »، وجيته « بشارلوت » بطلة « آلام فرتر »، ولامارتين «بجوليا » بطلة « رفائيل ». وأثر لامارتين في قصيدة الشابي أثر واضح لا شك فيه، وهو بارز في كثير من المعاني والتعابير ، وفي الموقف الذي يتخذه من الحبيبة .

وعنـد جبران يجب ان نقف طويلاً ، فلا شك في ان الشابي قد تأثر بنظرته الى المرأة ، وتاثيره سابق على كل تأثير . وكل تأثير جاء بعده ، لم تكن له وظيفة سوى تقوية أثر جبران ودعمه .

ونظرة جبران الى المرأة ، نظرة رفيعـة فيها صوفية ، وفيها رقة ، وفيها حنان . فيها هـذا الشعور الذي يكون عند المسيحي ، الذي يختلط

٠

حب المرأة في نفسه بعبادة « العذراء » . ولقد كان الشابي يعجب اعجاباً عظيماً بهذه المناجاة ، التي يهمس بها جبران في الأجنحة المتكسرة وقد اتخذ منها دليلاً على خلوّ الادب العربي القديم من الصور المشرّفة للمرأة... انها مناجاة للأم : « ان أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة (الأم). وأجمل مناداة هي (يا أمي) : كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الام هي كل شيء في هذه الحياة . هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف. هي ينبوع الحنوّ والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه، يفقد صدراً يسند اليه رأسه، ويداً تباركه وعيناً تحرسه. ان كلمة الام تختبىء في قلوبنا كما تختبىء النواة في قلب الارض ، وتنبثق من بين شفاهنا ، في ساعات الحزن والفرح ، كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي » .

وكان يعجب بهذه القطعة التي تشيد بوفاء المرأة وثباتها على العهد : « ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ، ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه . وهو يقتلع أشجارها ، ويحرق أعشابها، ويلطخ صخورها بالدماء، ويفرش تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ، ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور».

وتصوير الشابي للمرأة يردّنا الى لوحات عصر النهضة ، بما فيها من

رقة في القسمات ، ووداعة في الملامح التي تشفّ عن الطهارة والبراءة . ونموذج المرأة الذي تعلّق به ، هو هـذا الذي نجده عند أدباء النزعة الرومانطيقية : طهر وعفة ، وجمال ورقّة سماوية ، وبُعد عن شوائب الجسد ، وسموٌّ عظيم حتى عن الوصف والتحديد :

انت انت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجيّ الفريد
انت انت الحياة في رقة الفجر وفي رونق الربيع الوليد
انت انت الحياة كل أوان ، في رواء من الشباب جديد
انت دنيا من الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المريد
انت فوق الخيال والشعر والفن والنهى وفوق الحدود
انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي

المرأة في أدب جبران

أثر المرأة في حياة النابهين النابغين حقيقة ثابتة لا مجال للجدال فيها ، وتلك الحياة المنتجة الخصبة التي عاشها أولئك العباقرة، الذين كانوا شموعاً مضيئة في طريق الانسانية، انما كانت مستمدة في أغلب أحوالها، من ذلك النبع الفياض بالحب والعطف والحنان الذي كانت المرأة تغمر به عواطفهم. والمرأة كانت - دائماً - طيفاً ساحراً جميلاً ، اذا خلت منه حياة الفنان الشاعر ، فانها تغدو في اتصال فراغها كالصحراء القاحلة ، تموت الاحلام على رملها ، ويهيمن شبح اليأس على جوانبها . واذا قيل فتّش عن المرأة خلف كل إجرام ، كان من الحق والانصاف ان يقال : فتش عن المرأة وراء كل نظام . ولا خلاف في الصورة التي يتجلى فيها النظام ، فقد يكون مقطوعة موسيقية تعبّر عن آلام النفس الانسانية او آمالها ، وقد يكون قصيدة شاعر تصوّر لهفة العاطفة ونوازع القلب البشري ، وقد يكون لوحة رسام تمثل مشهداً من مشاهد الطبيعة وروائع الوجود، وما اكثر ما في الحياة من مشاهد جميلة لا تبصرها إلا عين فنان تنفذ الى الأعماق .

اذا كانت هذه هي مكانة المرأة في الادب والفن ، فان مكانتها في حياة جبران مكانة عظيمة بارزة ، لأنه أديب وفنان استيقظ احساسه بالحياة

على هدهدة حنانها ، وأبصر طريقه في الوجود على نور رعايتها ، وصعد قمة المجد مدفوعاً بالقوة التي أمدّته بها ، وخاطب العالم من خلال الوحي والالهام الذي زخرفت به دربه ؛ فأيُّ عجب بعد ذلك في ان يعترف لها في خشوع : « انا مدين بكل ما هو (انا) الى المرأة ، منذ كنت طفلاً حتى الساعة ، والمرأة تفتح النوافذ في بصري والابواب في روحي . ولولا المرأة الام ، والمرأة الشقيقة ، والمرأة الصديقة ، لبقيت هاجعاً مع هؤلاء النائمين الذين يفسدون سكينة العالم بغطيطهم » .

ومن خلال هذه الكلمة الرائعة التي تعترف بفضل المرأة ، وترد اليها الأثر الكبير في نباهة الذكر ، وعلوّ المنزلة ، يجب ان نطلّ على موقف جبران من المرأة . ذلك الموقف الذي لا يتضح لنا في جلاله وعظمته ، الا اذا أوضحنا حالة المرأة في بداية هذا العصر ، وهي حالة ما تزال سائدة في كثير من البلدان العربية ، كما ان رواسبها ما تزال تلعب دوراً كبيراً حتى في المجتمعات التي ظفرت فيها المرأة بنصيب من الكرامة واحترام الشخصية .

في مثل هذه الحالة انبثقت عبقرية جبران ، تلك العبقرية الفعالة التي ظهرت على جمود الشرق وخموده ظهور الشمس على الظلمة الحالكة. وليس من المبالغة ولا الاسراف في تعظيم جبران ، ان يقال انه من الرواد المجددين في ميدان الفكر العربي الحديث ، فتلك حقيقة لا يجادل فيها منصف يعترف بالحق لأهله . انه طليعة أدباء المهجر ، وما أظن القارىء في حاجة الى من يذكّره بمآثر الادب المهجري وأثره في النهضة الادبية

المعاصرة ، ذلك التأثير الذي صحح معنى الادب وأبعده عن الجو الراكد الذي كان يعيش فيه امتداداً لعصور الانحطاط والجمود ، فقد انتشله من هذه الهاوية بأن أرشده الى المعاني الجديدة وزاد من اتصاله بالحياة ، فكان معبّراً عن الشعور الصادق ، ومصوّراً للعواطف الانسانية الخالدة في مختلف جوانبها كما كان عاملاً من عوامل اليقظة والبعث ، والدعوة الى النهضة الشاملة .

وكل دعوة الى نهضة لا بد أن تتجه الى التعرّف بالعوائق التي تقف في طريق الموكب الصاعد. وليفتش المفكر ، وليدقق الباحث ، وليتحدث المصلح .. فما من تصحيح لوضع الامة العربية في الوجود ، إلا بتصحيح مكانة المرأة فيها ، اذا أردناها ان تكون أماً صالحة ، وخـــالقة أجيال ، ومربية شعوب . ولك ان تتبين ذلك من هذه الصرخة التي يرسلها جبران على الجامدين : « ان المرأة المظلومه رمز الامة المظلومة » ، « ان المرأة من الامة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون الشعاع ضئيلاً إلا اذا كان زيته شحيحاً ؟ » . ومثل هذا الرأي يحمل في أعطافه التصحيح الذي يهب المرأة مكانتها الإجتماعية ، ويرد اليها كرامتها السليب وانسانيتها الضائعة في غمار العبودية ، ويضعها في مكانها من الوجود ، حيث لا ينظر اليها على انها وسيلة من وسائل اللذة الرخيصة والمتعة الدنيئة ، يسعى الرجل الى كيانها اللافح ، غير حافل بما تحمل بين جوانبها من معاني الرحمة والعطف والأمومة والحنان .

انه التصحيح الذي يجعل منها خالقة شعوب، ومبدعة أمم، ومرضعة لمعاني المجد والسموّ وعبادة الوطن .

ان النظرة المادية لعنة أبدية ، لاحقت المرأة من عصور الانحطاط ، وتسرّبت الى الكيان العربي من أجناس غريبة عنه . وأنا من المؤمنين في اصرار، بأن النظرة المادية الفاسدة الى المرأة التي ظهرت في العصر العباسي، لم تكن وليدة الكيان العربي الاجتماعي ، وانما كانت وافدة مع الحضارات الجديدة . اننا اذا بحثنا في الادب الجاهلي والأموي ، لن نعثر فيه على مثل هذه الصور المهينة التي شاعت في العصر العباسي ، وظلت سلسلة ممتدة حتى بداية هذا العصر ، وبداية اليقظة التي أخذت تلتفت حولها لتنظر مكانها من الوجود، وتبحث عن حقيقة هذا الكيان الخائر المحطم، فكانت ثورة على جهل المرأة، وكانت ثورة على عبوديتها، وكانت ثورة على التقاليد التي لا تقيم وزناً للعواطف الانسانية . ولم تقف الثورة عند هذا ، فان جبران ، الذي كان رائداً من روّاد الحركة الفكرية ، قد ذهب في ادبه مذهباً جديداً ، وأخذ يسكب في الشرق من ذوب قلبه ، نفحات رائعة ، تسمو بالمرأة وترفعها الى مرتبة سامية تقرب من مرتبة التقديس. وموقفه منها موقف المتصوّف المتعبد المتبتل ، الذي ينسى ذاته في نشوة العبادة والاستغراق في الحب . وجدير بالذكر هنا ان الادب العربي الحديث ، على الرغم من مشاركته في الدعوة الى احترام المرأة ، ما يزال يعاني أثراً من رواسب عتيقة . ورغم هذه الصور المشرقة ، التي تطل علينا من خلال قصيدة رائعة او قصة ممتازة او مقالة ملتهبة ، فان صورة المرأة ما تزال

نهب الاجحاف وفريسة الغبن . وعلى كثرة مـــا نقرأ من غزل عفيف متصوف ، يسكب الشاعر فيه عواطفه ، ويستنزل عبقريته من سماواتها الرفيعة ليضعها على أقدام محبوبته ، فاننـا ، مع ذلك ، لا نعثر على صورة للمرأة وهي بعيدة عن المجال الغريزي . أين صورة المرأة الام ؟ اين صورة المرأة الاخت ؟ وما أسمى معاني الأخوّة والأمومة وما أكثرها لمن أراد ان يحيط بها .

ونمضي نفتش في يأس، على مناجاة للأم، وتصوير لعواطفها وتقديس لآلامها، فلا نعثر إلا على هذه الزهرات النادرة التي توشي دروبنا القاحلة. انها مناجاة للأم يهمس بها جبران :

« ان أعذب مـــا تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة (الأم) . وأجمل مناداة هي (يا أمي) : كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الام هي كل شيء في هذه الحياة . هي التعزية في الحزن ، والرجـــاء في الياس ، والقوة في الضعف . هي ينبوع الحنوّ والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه، يفقد صدراً يسند اليه رأسه ، ويداً تباركه وعيناً تحرسه .

كل شيء في الطبيعـة يرمز الى الأمومة ، فالشمس هي أم الارض ، ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ، ولا تغادرها عند المساء إلا بعـد ان تنيمها على نغمة امواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي . وهذه الارض هي أم الاشجار والازهار ، تلدها وترضعها ثم تفطمها. والاشجار والازهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية. وأمّ كل شيء

في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة . أن لفظة الام تختبىء في قلوبنا مثلما تختبىء النواة في قلب الارض ، وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح ، كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي الممطر » .

ولا بد من تفسير لهذا التنكر للمرأة ، عندما تكون بعيدة عن المجال الغريزي . والتفسير الذي أراه ، ان أمهات بعض المبدعين لسن من قوة الشخصية والتأثير في حياة أبنائهن ، بالمكانة التي تقف فيها أم جبران . فلا شك في ان جبران كان يصدر في هذه المناجاة عن حب عميق لأمه ، وتلك صفة شهد بها أصدقاؤه ومؤرخو حياته ، فقد كان يحبها حتى العبادة ، واليها يرد أخلاقه وميوله . ويقف دونها بعد ذلك في الصفات الاخرى، فيقول في رسالة الى الآنسة مي: «أما انا، فقد ورثت عن امي تسعين بالمائة من أخلاقي وميولي ، ولا أعني بذلك انني اشبهها بالحلاوة والوداعة والقلب الكبير » . لقد نسج من كلمات هذه الام الحنون « أجنحته المتكسرة » ، وسكب من عواطفها وصورتها الوديعة تلك المناجاة الرقيقة . والى هذه الام وحنانها يجب ان نردّ كل اسباب السموّ بالمرأة في ادب جبران .

وجبران لا يقف عند المظاهر المادية للمرأة او الجمال الجسدي ، وانما يمضي الى الأعماق ، الى خلجات النفوس واهتزازات العواطف . وما من شك ان تقديسه للمرأة وسموّه بها يحملان في أعطافه روحاً مسيحية . وكثيراً ما يختلط حب المرأة في عاطفة المسيحي بعبادة « العذراء » ،

ومثل ذلك واضح في « بياتريس » ملهمة دانتي ، و « لورا » حبيبة بترارك .

وليس من العسير ان نعثر على نموذج المرأة كما يريدها ، والمرأة كما هي مكانتها من المجتمع الشرقي. على اني احب ان أثبت حقيقة واضحة ، هي ان الروح كانت تشغل جبران اكثر من انشغاله بالجسد ، ولنا ان نتبين ذلك من عرضه الزواج على « ماري هاسكل » ، ولم يكن لها من الأنوثة ما يرغب الرجل في الاقتران بها ، هذا الى انها كانت تكبره سناً . كما عرض الزواج على « مي » ولم يتعرّف بها عن كثب ، وانما أحبَّ روحها التي كانت تأتي اليه هائمة مع البريد ، وهذا حب لا يقال في صاحبه أنه مادي لا يتعلق بالمرأة إلا اذا تمثلت لعينيه في صورة مثالية جميلة. ولكن « سلمى» نموذج ممتاز للمرأة، التي تجمع الى جمال الجسد ، جلال الروح ، ونقاوة السريرة ، وعفة النفس . حتى ليعسر عليه ، وهو الشاعر الفنان ، ان يصوّر جمالها :

« إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس ، مشفوعاً بجمال الجسد ، هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام ، تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس » .

قصة الأجنحة المتكسرة ، قصة المرأة الشرقية المظلومة ، التي تضعها تقاليد المجتمع الفاسدة في بيت زوج ، لم تضمها اليه عاطفة الحب ولم يجمعها التفاهم الروحي ، وانما تنقل من بيت أبيها الى بيت زوجها كأنها قطعة من الأثاث او نفيس الرياش، ولا رأي لها في هذا المستقبل او المصير

الذي تقدم عليه . ومتى كان للضعيف ارادة امام القوي ؟! هذه « سلمى » فتاة روحية الاميال والعواطف والمذاهب ، في روحها عذوبة ، وفي نفسها كآبة. وهبتها السماء نعمة الجمال الجسدي مشفوعاً بالجمال الروحي، وكانت في سموّ أخلاقها ورفعة تربيتها ، تذعن لإرادة والدها الواهنة ، تلك الارادة التي حبكت قضبان سجنها ، عندما ألقت بها في أحضان راهب (تسير قبائحه في ظل الانجيل فتبدو للناس كالفضائل)، فزوّجها من ابن أخيه كي يضم ثروة ابيها ، ثم أهملها وذهب يلتمس اللذة الدنيئة عند غيرها ، حتى اذا أنجبت مات الوليد الصغير ، ثم لحقت به تاركة له وللمطران دلك الثراء الذي تزوّجها من أجله .

ورأي جبران في الزواج غير واضح ، فهو كافر به عازف عنه عندما كان خاضعاً لتأثير «نيتشه»، حتى ليراه «عبودية الانسان لقوة الاستمرار»، ولكننا نستطيع ان نفهم من آثاره الادبية ، انه كان يحقد على الطريقة التي كان يتم بها الزواج في الشرق ، تلك الطريقة التي تجعل المرأة بضاعة رخيصة لا وزن لها ولا قيمة لعواطفها ، وهي ممثلة على أوضح صورها في « وردة الهاني » ، احدى نماذج - الارواح المتمردة - الثائرة على شريعة الناس وتقاليدهم التي تجعلها « رفيقة مضجع بحكم العادات والتقاليد ، قبل ان تصيّرها السماء قرينة للرجل بشريعة الروح والعواطف » .

وقصة هـــذه المظلومة قصة الرجل الذي يضم اليه امرأة لم يستمل عواطفها بالحب، فتستيقظ بعد حين، منتبهة الى الواقع المرير الذي يشدها الى رجل لا يرضي عواطفها ، ولا يحقق احلامها او يغمرها بذلك الحب

الصافي والحنان الجارف ، فلا عجب اذا انقلبت روحها متمردة صارخة : « ان سعـادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ولا بكرمه وحلمه ، بل بالحب الذي يضم روحها الى روحه ، ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها عضواً واحداً في جسم الحياة » .

ويذهب جبران في مناصرة أمثال هذه المرأة الى الحد الذي يعتنق فيه منطقاً بعيداً عن السداد، وقد انتصر لهذه المرأة التي تركت بيت زوجها، عنـدما انسكب على ظلمة قلبها شعاع رقيق من عيني شاب فقير ، يقطع طريق الحياة وحده، فكانت له الرفيقة التي تهجر بيت الزوج، وتستخف بالشرائع وتقاليد الناس من أجله ، لأنها تكره ان تعيش مرائية مداجية ، كما تكره ان تخضع لغير قلبهـا الذي يأبى الاذعان للمظاهر الاجتماعيـة ، وتأبى ان تكون نموذجـــاً من تلك النماذج الكثيرة . التي تدافع بوجود أزواجها عن منكراتها ومفاسدها .

ومصدر المفاسد الاجتماعية وتلك الخيانات والمنكرات، التيتستعرضها بطلة القصة ، انما يرجع ، في أغلبه ، الى ان الناس يذعنون للتقاليد اكثر من إذعانهم لشريعة القلب ، ولو استجابوا الى دعوة العواطف الانسانية لاستطاعوا ان يبعدوا شبح الفساد عن حياتهم . ذلك لأن « المحبـــة هي الحرية الوحيدة في هـذا العالم ، لأنها ترفع النفس الى مقـام سامٍ لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها » .

ومنطق العـــاطفة الذي غلب على جبران ، في انتصاره « لسلمى » و « وردة » ، وتبريره لموقفها وتأييده لاجتماعها بمن أحبتا من الرجال ،

هذا المنطق لا يجد قبولاً عند الكثير . ولا يصح ان يغفل في هـذا المجال رأي الآنسة « مي » ، فهي كامرأة أولى بأن تشعر بالمشكلة في صميمها « اننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . انا أحترم أفكارك ، وأجلّ مبادئك ، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها ، مخلصاً في الدفاع عنها ، وكلها ترمي الى مقاصد شريفة . وأشاركك ايضاً في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة . فالمرأة كالرجل يجب ان تكون مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب ، تابعة في ذلك ميولها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف. حتى اذا ما انتخبت شريكاً لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً : انت تسمي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الاجيال، وأنا أقول انها سلاسل ثقيلة . نعم، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي . فإن توصل الفكر الى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد ، فلن يتوصل الى كسر القيود الطبيعية ، لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء . ثم لماذا لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لأنها باجتماعها السري هـذا ، مهما كان طاهراً ، تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء ارادتها ، وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها »

هـذا استعراض لرأي جبران في المرأة ، قصدت من ورائه البحث الادبي الخالص ، والدراسة التي تحدد مكان المرأة من أدب هـذا الأديب الكبير. وربما كان من تمام هذه الدراسة التي طالت، ان نختمها بهذه القطعة الرقيقة التي تشيد بوفاء المرأة وثباتها على العهد : « ان قلب المرأة لا يتغير

مع الزمن ولا مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ، ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه : فهو يقتلع أشجارها ، ويحرق أعشابها ، ويلطخ صخورها بالدماء ، ويفرش تربتها بالعظام والجماجم .. ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ، ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور » .

الطفولة في شعر الشابي

في صباح مشرق من أيام الربيع ، جلس الشاعر الايطالي ليوباردي ، في ظل قصره الشامخ يتأهب للقراءة ، ولكن تغريد الطيور ملك عليه قلبه وعقله ، فانصرف عن الكتاب الذي كان بين يديه ، الى التفكير في هذا التغريد العذب الجميل ، ما سره ؟؟ فلم يدر إلا ويده تمتد الى القلم ، لتسجل على القرطاس هذه الخطرات :

« ان الطيور أسعد المخلوقات بطبعها، تشعر بالمرح والخفة والطمأنينة اكثر من أي مخلوق آخر . وان أغلب الحيوانات ليبدو عليها الحزن والكآبة، كأن الحياة لديها ظلمة حالكة. فهي لا تظهر أية علامة من علامات الانشراح والمرح ، ولا تهزّها المروج الخضراء ولا الاشراق الذي يغمر الكون في ايام الربيع ، ولا جوّه الطلق المنعش، الذي يسري في الأوصال فيبعث خامدها ، وفي النفوس فيحيي ميتها . ولكن الطيور في مظهرها وحركتها ، تنعم بالاطمئنان . وليس من سر لهذه الطمأنينة الا ذلك السر الذي يكمن في تركيبها الجسماني ، فقد خلقت مؤهلة لأن تنعم بالانشراح والانطلاق . انها تغرّد كلما شعرت بسرور غامر ، وهي تغني في اكثر الأوقات . ويدل ذلك على ان مزاجها مستجيب للمرح ، وانها مستمتعة بحياتها. ويزداد تغريدها في الايام الصاحية الجميلة، ويقلّ في الايام الحالكة

المظلمة. وهي تستقبل العاصفة بالصمت، ولكنها تشيعها بالتغريد والمغازلة والقفز . وهي تغني في الصباح ، كأنها تشعر بمثل ما يشعر به النـاس من بهجة اليوم الجديد.. تأخذها البهجة والانشراح من منظر المروج الخضراء والوديان الخصبة ، والمياه الصافية ، والجداول الرقراقة والقرى الجميلة ، حتى ليمكن القول ، ان ما يشعر به الانسان من جمال وسحر في الطبيعة، تشعر به هي الاخرى . وهي لا تستقر في مكان ، فما تـكاد تقع على غصن حتى تغـادره الى آخر . وما تـكاد تهبط الى الارض ، حتى تعود فتحلّـق في الفضاء الوسيع . انها لا تعرف الركود والاستقرار. انها حركة متصلة. وهي في ذلك تشبه الاطفال ، تشبههم في حركتهم وفي رشاقتهم ، وربمـا تشبههم ايضاً في أفراحهم : فكلاهمـا لا يحمل همّاً خارجياً ، وكلاهمـــا مشغول بنفسه عن أحداث العـالم . وغير غريب ان يخلص الشاعر بعـد ذلك ، الى ان الحيـــاة حركة ، وان الطيور ما حفلت حياتها بالبهجة والمسرّة إلا لطبيعة تركيبهـا . وتنقّـلها من مكـان الى آخر في سرعة عجيبة ، هـــذا التنقل الذي أبعدها عن السأمة والملل والحياة الرتيبة ، وساعدها على المشاهدة ورياضة الجسم ». وكما تمنى الشاعر الاغريقي القديم ، ان يتحوّل الى مرآة مصقولة تطيل حبيبته التامل فيهـا ، او الى طيب يغمرها بجوّ من العطر، او الى ماء تستحم فيه وتسيل قطراته على جسمها الساحر الفتان ، او الى غلالة تضمّ صدرها النـــاهد وتحنو عليه ، او الى لؤلؤة تتالق في جيدها الأتلع ، او الى حذاء تدوسه بقدميها الرشيقتين ..

فان ليوباردي لا يتمنى الا ان يتحول ، لبرهة قصيرة ، الى عصفور ، حتى يجرّب سعادة الطيور وطمأنينتها .

طافت بذهني هذه الأُمنية التي تصدر عن شاعر محروم ، حين هممت بالتحدث عن الطفولة في شعر الشابي . ولست أدري ما الذي أوحى إليَّ بهذه الصلة بين الطفولة ومرحها ، والطيور وانطلاقها ؛ ولكني أدري أن الشاعرين البائسين لم يقفا عنـــد هذين الموضوعين ، الا ليعكسا شيئاً من فلسفتهما . عـاش ليوباردي محروماً من كل شيء ، حتى من عطف الام وحنانها ، مقيداً باغلال الأسرة التي كانت تشفق عليه ، من مغادرة بلدته الصغيرة التي لا ترضي طموحه ولا تلائم نزوعـه الى الحركة والتجربة . انه يريد الانطلاق . يريد الآفاق الرحبة . يريد ان يجرّب الحياة . يريد ان يغرّد على كل فنن ... وهكذا وجد التعبير عن حيـــاته الراكدة ، بتصويره لحياة الطيور .

اما الشابي ، شاعرنا الخالد العظيم ، فمـا قرأت شعره مرة ، إلا برزت الى ذهني ناحيــة ، أحسب ان اكثر الذين بحثوه ودرسوه قد غفلوا عنها ، وأعني بها الطفولة في شعره . فان شاعراً من شعرائنا المعاصرين ، لم يبلغ ما بلغه الشابي ، في التغني بعهودها الجميلة، وتصوير أيامها الرائعة الرقيقة تصويراً يضفي عليها شيئاً كثيراً من الرقة والحنـان والعذوبة والسحر والجلال . وما أعذب ايام الطفولة ، وما أبهج ذكرياتها الجميلة . انهـــا فردوسنا المفقود الذي كنا نشعر فيه بأننا كل شيء في الحياة . فليس لنـا الا الأمر ، وما على الآخرين الا الطاعة . ليس لنـا ان نفكر في هذه الدنيا

وآلامها وأحزانها ، ولكننا نقضي ايامها في اللهو والمرح ، دون ان نحفل بها، «تدور باهلها أم لا تدور..» حسبنا منها حنان الأمومة ورعاية الأبوّة.

هذه الحقبة السعيدة في حياة كل انسان ، يصوّرها الشابي تصويراً رائعاً يبلغ به قمة الابداع . ولقد نالت الطفولة شيئاً من اهتمام الشعر العربي . فعرفنا زفرات محرقة ولوعات حارّة لابن الرومي والتهامي ، وتصويراً عذباً لعهودها لدى خليل مطران . ولكن هؤلاء جميعاً ، لم يزد اهتمامهم بها على بكائها في من مات لهم من الاطفال . فهم لا يلتفتون اليها الا اذا تعلقت بحادث وفاة ، اما في معناها العام ، فما أقلّ الذين التفتوا اليها كما التفت اليها الشابي .

فلنقرأ كيف يصف ايامها في رقة ووداعة محببتين الى النفوس :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

ونحن اذا حاولنا اكتشاف السر الذي يجعلنا نعشق الطفولة ، ونتعلق بأيامها الساحرة الجميلة ، فاننا نجد انها تعيد الينا العالم قشيباً جميلاً ، وتعيد الينا الحياة كيوم خلقها ، كما تصوّر لنا البراءة والسذاجة والصراحة ، والحياة المتحررة الطليقة التي افتقدناها في هذه الدنيا ، حيث تفتحت عيوننا على صراعها الجبار ، فادركنا ان أسلحة الطفولة لا تجدي في معركتها المريعة. فلا الطهارة ولا السذاجة بمجديتين امام الرياء والأحقاد والأضغان . ومن خلال هذا العالم الذي تغمره الظلمة الحالكة ، تبدو لنا

الطفولة كما تبدو الواحة للمجهد العاني الذي طال عليه الضرب في الصحراء . انها ترفع عنا شيئاً من أثقال الحياة وأهوال الوجود :

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا نحفل ، الدنيا تدور باهلها ، او لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الاحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير
هذا مصيري .. يا بني الدنيا .. فما أشقى المصير

وليست الطفولة غريبة عن حياة العباقرة الأعلام ، فهم يعيشون بروح الاطفال . وحتى ثورتهم على مجتمعاتهم لا تفسَّر بغير هذه الروح في بعض الاحيان . ويمكن تفسير الركون الى الطفولة ، بأن الانسان قد عبر هذه الفترة ، دون ان يستشعر لذتها او ينعم بسعادتها . وهذا تفسير لا ينطبق على الشابي ، لأن طفولته كانت سعيدة مغمورة بعطف والديه ورعايتهما. ويمكن تفسيره بأن الانسان انما يتشوّق الى الطفولة، حين تنقطع عنه ، وتجابهه الحياة بواقعها المرير وتجاربها القاسية وبُعدها عن المثالية الاخلاقية . وحينئذ لا يجد المتامل في هذه الحقيقة ، الا ان يفزع الى طفولته، الى أحلامه وأوهامه. وأين تكون الاحلام والأوهام، اذا تعدَّت عالم الطفولة البريئة ؟ تلك الحقبة التي نحياها طلقاء بعيدين عن كل قيد ،

تحفنا الرعاية ، ويغمرنا الأعجاب والإكبار ، وليس لنا من همّ سوى اللهو والعبث البريء :

لا نسأم اللهو البريء وليس يدركنـا الفتور
فكأننا نحيـــا بأعصاب من المرح المثير
وكأننـا نمشي بأقدام مجنحـــة تطير
أيام كنا لبّ هـــذا الكون والباقي قشور

ويلعب الواقع الاجتماعي دوراً عظيماً في حنين الشاعر الى الطفولة ، فهو حين يصل الى قرارة بعيـدة من الانحطاط والخنوع ، يدفع الانسان الواعي الى مسالك متعددة ، ويوحي بضروب مختلفة من الكفاح .

محـاربة جريئة تكشف زيفه وباطله ، مؤمنةً بأن مجـابهة الواقع في أسوأ صوره وكشفه والتعرف بـه ، أولى خطوات الاصلاح . وان الجبناء فقط هم الذين يفرّون من مجابهة حقيقة واقعهم، ويلوذون بأحلامهم المخدرة واستسلامهم البائس . وهـــذا الفريق الجريء قد يذهب ضحية عقيدته وايمانه،ذلك لأن الناس لا تحب من يشككها في الواقع الذي استنامت اليه وارتضته ، اذ ان الانتفاض سيدفعها الى تغييره والاتيـان بخير منه . وهي عاجزة عن ذلك ، راغبة في حياة الكسل والخمود .

انهزامية تدفع الانسان الى الاستخفاف واللامبالاة .

هروب الى الأحلام والأوهام وتطلّع الى الحياة الجميلة .

والشابي، شاعرنا الخالد، الذي كانت حياته القصيرة سلسلة من التجارب الانسانية ، تعرّض هنا الى تجربة عميقة . فقد واجه شعبه بحقيقة واقعه ،

وأظهره على الفساد الذي يشيع في كيانه ، فكان الجحود والنكران جزاء اخلاصه وتفانيه . حطم الشعب كاسه ، ومزّق زهوره ، وألبسه تاجاً من الشوك وثوباً من الحزن .. فالى الغاب ايها الشاعر لكي تنسى .. وحاول ان ينسى شعبه ويهمله ، ولكنه لم يستطع . وما أعظم وطنيته حين يتجه الى الغاب قائلا :

سوف أنساك ما استطعت ، فما انت باهل لخمرتي ولكاسي

أيّ وطنية أرفع من هذه التي تكمن في عبارة « ما استطعت » ؟

ألا تحس معي ان الشاعر غير قادر على نسيان شعبه الذي عفه وتنكر له؟ وكان الفرار من مشاكل شعبه أُمنية من أمانيه التي لم يستطع ان يحققها في الحياة ، لأن نفسه الكبيرة لم ترض له الانهزام :

ليت لي ان أعيش في هذه الدنيا ، بعيداً بوحدتي وانفرادي

لا أعني نفسي باحزان شعبي ، فهو يحيـــا بظلمة الآباد

وهبَ الشابي للكفاح كل مـا يملك ، وحارب واقع أمته في جبهات متعددة ، وحين أعيـاه الاصلاح وأوهنت قواه عوامل الشر والفساد ، التفت الى طفولته باحثاً عن جنته الضائعة ، فقـــد أيقن ان حصاده من حقول العـالم الرحيب الخطير ، لم يزد على غير النـدامة والأسى واليأس والدمع الغزير . التفت اليها يبكي أصائلها الذهبيـة ، وأسحارها الفضية ، وعبثها البريء .

وحب الطفولة عند الشابي ، ينطوي على معنى آخر يستحق الدراسة والاهتمام . ألم نعرف الشابي ثائراً على كل قديم رثّ ، ومؤمناً بكل جـديد

مشرق ؟ والطفولة ، أليست في أبسط معانيها ، تجديداً وبعثاً للحياة ؟ فالشابي شديد الايمان بجدة الحياة . ومن هنا كان تعلقه بالطفولة في كل شيء ، ولذلك أكثرَ من التغني بها وتمجيدها ، في شعره الرقيق البديع .

تغنى بطفولة الطبيعة في ربيعها : زمن الحب والبعث والتجديد ، وطفولة اليوم : فجره وصباحه . وما اكثر ما نقرأ من تمجيد للفجر القدسي وللاصباح الجديد .

وفاتنته ، التي أوحت اليه صلواته في هيكل الحب ، لم يجد ما يتقرب به اليها ، سوى ان يخلع عليها من صفات الطفولة ما يجعلها محببة لكل قلب :

عذبة انت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

كان يقدّس الأمومة ، ويرى فيها أسمى المعاني التي تحملها المرأة . استلهم هذا التقديس حين أراد تصوير « قلب الام » التي تفقد وليدها الصغير . فاستطاع ، بما أُوتي من رحابة في الخيال ، وعمق في الاحساس ، وبراعة في التصوير ، ورقة في التعبير ، ان يقدم لنا قصيدة مؤثرة من أعمق قصائد الرثاء ، تمتاز ببساطتها ونفاذها الى أعماق القلوب ، لحرارة اللوعة التي تسري في كلماتها . فهذا الطفل الذي كان كاللحن الجميل :

ويعلّم الناس البراءة والمحبة والسرور
وينير أعماق القلوب بوجهه العذب النضير

تطبق المنية جفنيه ويتفرق الصحاب ، وينسيهم المرح وداعة وجهه

وغنـاءه الجميل ، وينصرفون الى العبث وتشييد الأكواخ من الحشائش والرمال والزهور . كما تنساه الطبيعة والمسارح التي شهدت مولده وكانت مرتع لهوه . ينساه الجميـع :

إلا فؤاداً ظلّ يخفق في الوجود الى لقـاك
ويودُّ لو بذل الحيـــاة الى المنيـة وافتداك
فاذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاك
يصغي لصوتك في الوجود ، ولا يرى إلا بهاك

الشابي ومدرسة حافظ ابراهيم

الى أي مدى كان الشابي تلميذاً في مدرسة حافظ (*) ؟..

وقبل ان أخوض في التفاصيل ، أقول انني أشك كل الشك في ان يكون الشابي تلميذاً لحافظ ، ولديّ من الأدلة ما يدعم هذا الشك .

أولهـا أن التلمذة من الكلمات التي تحمل معنى واسعاً شاملاً ، لا يقف عند الانسياق الى دعوة التجديد. فلا تكفي دعوة حافظ الى التجديد لأن تحشر كل من جاء بعده في زمرة مدرسته .

ان التلمذة تعني أشياء كثيرة غير هـــذا ، تعني التشابه في الخصائص الفنية ، من صياغة ومضمون وفلسفة في الحياة .

وما أحسب احداً يزعم أن الشابي كان يشبه حافظ ابراهيم في ذلك ، فانهما كانا على طرفي نقيض .

(*) كتبت في الرد على من زعم أن الشابي من تلاميذ مدرسة حافظ ابراهيم .

ووقفة نتعمق فيها شخصية الشاعرين ، مستندين في ذلك الى آراء الذين صاحبوهما وعاشروهما، وأغلبهم من أعلام الحركة الادبية المعاصرة، نخرج منها بأن شخصية حافظ لا تتفق مطلقاً مع شخصية الشابي ، وان مذهب حافظ في التجديد لا يلتقي في أي طريق مذهب الشابي .

وهذه الوقفة ضرورية لبيان المذاهب التي كان يسير عليها كل منهما . وواضح جداً أن اي مذهب شعري او فلسفي ، لن يكون الا نتيجة لمقومات الشخصية والعناصر التي تتركب منها .

فشخصية حافظ ، كما يراها الدكتور طه حسين ، كانت : « بسيطة ، يسيرة ، لا حظٌ لها من عمق ولا تعقيد ، ولم ينفذ عقله الى طبائع الاشياء ، ولم يصل الى اسرارها ، فعجز عن إجادة الموضوع » . وفكر حافظ ، كما يراه الاستاذ الزيات ، كان : « فيض الشعور ، وعفو البديهة ، ينشأ في الكثير الغالب ، من آراء المجالس ، وأقوال الصحف ، ومخزون الحافظة، فلم تعنه حياته على التروية ، ولم يدعه اضطرابه الى التأمل ، ولم تطلقه قيوده الى الطبيعة » .

أما شخصية الشابي ، فهي رومانسية وعميقة وذات خيال فسيح وعاطفة متنوعة ، وقد نتج عن هذا العمق أن ألم الشابي واحساسه بالحياة قد بلغ من التفوق حداً بعيداً ، وهو في ذلك يختلف عن حافظ صاحب المزاج ، الذي لا يطيق العكوف على ألمه واجترار احزانه ، ولا التأمل الطويل في مآسي الحياة . ونتيجة لهذا ، انعدم في شعره مثل هذا الشعور المتصوف الذي يملأ شعر الشابي .

كان الشابي واسع الخيال ، بعيد المدى . وكان حافظ ، كما يقول الدكتور احمد امين : « قريب الخيال ، قلّ حظه من الابتكار ، وقلّ حظه من التصوير » .. وكان الشابي شديد الشغف بالطبيعة ، يؤمن بها ويعبد ما فيها من سحر وجمال . وكان حافظ قليل الشعور بالطبيعة . ويلاحظ الدكتور احمد امين : « ان عاطفته ينقصها التنوع ، فلا تجد كثيراً من شعره في جمال الطبيعة » .

ومن هنا نستطيع ان نحصر الأفق الشعري لحافظ في ابواب معينة . ثم ان الشابي، رغم جهله باللغات الاجنبية ، استطاع ان يدرس ما عُرّب من آدابها ، وان يفهمه ويتعمقه الى الدرجة التي أخذ يقارن فيها بينه وبين الادب العربي ، وان يقف معها ، الى جانب الادب الغربي ، وقفة اتُّهم فيها بالتمرّد على ادب الاجداد ، وهجر ادب الاعراب الى ادب الاغراب .

اما حافظ ، رغم إلمامه باللغة الفرنسية ، فان ادبه كان عربياً خالصاً ، في روحه ولفظه . وليس من الصواب ان يُقال انه قد استفاد من هذا الادب في معانيه ، فلسنا نعرف له في ديوانه ، إلا بعض ابيات تُعدّ على أصابع اليد الواحدة، نقلها عن الفرنسية. وتأثره بالآداب الغربية لا سبيل الى ملاحظته في هذا الديوان ، وهذا الرأي يجمع عليه اعلام الادب الذين عاشروه وصاحبوه وعرفوه عن كثب ، ورأيهم أولى بالنظر والاعتبار .

يقول الدكتور احمد امين في مقدمة الديوان : « ان شعره نتاج الادب العربي ، والثقافة العربية ، والتجارب الشخصية » . ويقول الاستاذ حسن الزيات : « لغته الفرنسية ظلت بكماء ، فلم يتقنها ولم يستفد منها ،

لا بالقراءة ولا بالترجمة » . ويقول الاستاذ العقاد : « لا تجد بين العارفين باللغات الاجنبية احداً أشبه منه بمن يجهلونها » . ويقول الدكتور طه حسين : « كان حافظ يلمّ بالفرنسية ، ولكنه لم يكن يتقنها ، لا نطقاً ولا فهماً . لم يستفد حافظ لأدبه ولشعره من اللغة الفرنسية شيئاً يذكر ، فهو غير مدين لاوروبا بشيء من ادبه » .

وربما يكون من المفيد ان نقف قليلاً عند هذه الدعوة ، التي ضمنها قصيدته في مبايعة شوقي ، وقصيدته الاخرى التي جاءت مستقلة ، لتنظر مدى صدق حافظ واخلاصه لهذه الدعوة :

عرفنا مدى الشيء القديم ، فهل مدى
لشيء جديد ، حاضر النفع ممتع ؟

فهل جدّد حافظ ؟..

هذا السؤال يلقيه المرحوم الدكتور احمد امين في مقدمة ديوان حافظ، ويجيب عليه قائلاً :

« لم يجدد في بحوره وأوزانه ، ولم يجدد في اسلوبه وبيانه، ولا تفكيره وحياته ، انما جدّد في شيء ، هو فوق ذلك كله ، جدد في موضوعه وأغراضه، فبدلاً من ان ينظم في موضوعات امرىء القيس وطرفه، نظم في موضوعات عصره ، وأماني قومه » ..

هذا ما يقوله الدكتور احمد امين . وبالرجوع الى الديوان نجد أن

حافظ ابراهيم قد سلك هذا المسلك في التجديد، قبل ان يدعو اليه في تلك القصيدة. فلماذا اذن كانت هذه الدعوة ؟..

لعله أراد بها ان يستثير غيره من الشعراء الى الاقتداء بمنهجه. وهذا المنهج كان عاماً شائعاً في الشعر العربي حينذاك، وأغلب الظن ان المرحوم حافظ ابراهيم قد عمد الى هذه الدعوة، ليتجنب نقدات النقاد ويطلعهم على مسايرته لهم في الرأي، لأنه لم يكن يحمل فكرة واضحة عن التجديد، ولا يملك منهجاً يسير بمقتضاه. ومعلوم انه قد اشتدت ـ في ذلك الوقت ـ صيحات المجددين، وازدادت ثورتهم على المقلدين وأتباع المدرسة القديمة. وكان يتزعم هذه الحملات في الشرق الأساتذة: العقاد، والمازني، وشكري، وطه حسين.

وتبقى بعد هذا ناحية اخرى، يجب ان يحسب حسابها في دراسة التجديد. ودعوة التجديد، كما نعلم، كانت سابقة لحافظ، حيث كان رائدها الاول الشاعر الكبير خليل مطران، ومنه انبثقت المدرسة المهجرية، التي تلتقي مدرسة العقاد وشكري والمازني في كثير من المفاهيم الجديدة للشعر، وأهمها: ان الشعر يجب ان يقوم على اعتبار انه قيمة انسانية، وانه تعبير عن الشخصية الممتازة، فيجب ان يكون أثر الشخصية التي ابتدعته واضحاً فيه.

وهذه الحدود ظاهرة في شعر الشابي اكثر من ظهورها في شعر حافظ. وأرى انه من التناقض ان نعتبر الشابي تلميذاً للمدرسة المهجرية، وتلميذاً لحافظ في نفس الوقت، والفروق بين المدرستين أوضح من ان يحتاج

الانسان الى توضيحها . ويكفي ان يقال ان المدرسة المهجرية كانت ثورة متمردة على المدرسة الاتباعيـة ، التي لا يستطيـع احد ان ينكر أن حافظ ابراهيم كان من اعلامها المبرزين .

.. فهل يصح ، بعد هذا ، الاعتقاد بأن المدرسة المهجرية منبثقة عن مدرسة حافظ ؟..

وربما كان ادنى الى الصواب ، ان يقـــال أن الشابي يمتُّ الى مدرسة مطران بأقوى الصلات وأوثقها ، اذ انه صاحب الدعوة الابتداعية الاولى في الشعر العربي المعـاصر ، حتى ليرى الاستاذ اسماعيل أدهم ، في دراسته الرائعـة عن مطران ، أن كل تجديد في الشعر الحديث يجب ان يرد اليه .

ونحن نستطيـع ان نحصي من عنـاصر المشابهة بين مطران والشابي ، مـا يلي :

وحدة القصيدة ، الركون الى الطبيعة والتعاطف معها ، امتـــداد الخيـال ، وعمق الشعور ، والقـدرة على التشخيص ، وبراعة الوصف والتصوير ... على ان تأثير المدرسة المهجرية في روحه سيظل هو الغالب على كل تأثير، ويمكن ان نلمح ذلك في الرأي الذي يجهر به الدكتور اسماعيل ادهم ، عندما يتحدث عن مدرسة مطران : « خلّـف الشابي تراثاً عظيماً للشعر العربي ، نجـــد في نغماته نغمات شللي . وشعره من أروع الشعر الحديث ، من ناحية عمق الفكرة ، وانفراج الحياة ، وغنى الشعور ، وعلو الخيال . وربما بدأ خطواته تحت تأثير ديوان الخليل . عبارته بعيـدة عن عبارة مطران الرصينة ، وهي أقرب الى عبـارة ابي شادي المتحررة .

والشابي من أصدق تلاميذ مدرسة ابي شادي في هـــذه الناحية . لجوء الشابي الى الطبيعـة وركونه اليها ، فيـه شيء من روح مطران . تأثره باخيلة جبران ونعيمة ورشيد ايوب ونسيب عريضة ، يغطي على تأثره بروح مطران » .

ولعلنا لاحظنا أن صفات الشابي، كما يحددها الدكتور اسماعيل ادهم، وهي عمق الفكرة وانفراج الحياة وغنى الشعور وعلوّ الخيـال ، لا تتفق في شيء مع صفات حافظ ، كما يحددها الاساتذة : الزيات ، وطه حسين ، واحمد امين .

حتى الوطنية، وحافظ عـلَم من اعلامها في الشعر المعاصر، لا نستطيـع ان نجد مشابهة فيها بينه وبين الشابي ، فقد كان حافظ محلياً في وطنياته ، وهذه حقيقة يؤكدها اكثر من اديب ، اذ ان حافظ ابراهيم لم يكن يطل على احداث وطنه من أفق انساني عام . ومن هنا تفقد قصائده كثيراً من قيمتها اذا ترجمت ، ولا تفقـــد اغلب قصائد الشابي شيئاً من قيمتها اذا نقلت الى لغة اخرى ، لأنها تعبر عن حقائق انسانية خالدة تعلو كثيراً على المناسبة التي أوحتها . وقد حمل على هذا المسلك الاخير في كتابه عن الخيال الشعري قائلاً :

« ان شعراء الغرب ، عندما يتحدثون عن الحب والامل ، يتكلمون عنه في حقيقته ، لا كما يفعـل شعراء العرب الذين يتحدثون عن أثره في الحياة » ..

ومن هـــذه النظرة نستطيـع ان نلمس الفرق بين مذهب حافظ ،

ومذهب الشابي في الوطنيـة . وهي وحدها تفسر لنـا الاختلاف بين : (ارادة الحياة ، والنبي المجهول) ، وبين قصائد حافظ .

ان وطنية الشابي كانت واضحة الخطوط والمعالم ، ولم تكن متروكة للمناسبة كما كان يفعل حافظ، فهي التي ترسم له الطريق الذي يسير عليه، فلا يخرج شعره عن تعليق الصحف والآراء الشائعـة . ولست انا وحدي الذي أرى هذا الرأي، فهذا الدكتور شوقي ضيف يقول في كتابه (دراسات في الشعر المعاصر) :

« الشعر السياسي او الوطني كان منتشراً في كل بلاد الشرق الاوسط، في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعراً لم يبلغ في هـذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس. حقاً نجد عند حافظ والرصافي وأضرابهما تعبيراً سياسياً او وطنياً مستحدثاً في لغتنا ، ولكن لا نجد عندهما هـذا الاحساس الحاد الذي يجعل الشاعر يحس أمة بأسرها » ..

وهـــذا الرأي يفسر لنا سر الاقبال على شعر الشابي ، الذي اصبح انشودة الوطنية الصادقة . ومن هنـا ندرك لماذا لم يضم ديوان حـافظ ، رحمه الله ، قصيدة واحدة تقف مرفوعة الرأس امام (ارادة الحيـــاة) و(النبي المجهول)، في حقائقها الانسانية الخالدة وقيمتها العامة الشاملة. ولعل شعر الشابي في العصر الحالي ، أدنى الى التعبير عن أماني الشعوب العربية من شعر حافظ وغيره من اعلام شعراء المدرسة التقليدية .

ان مذهب الشابي ، في التجديد ، ودعوته يختلفان كل الاختلاف عن مذهب حافظ ودعوته، ولا يمكن ان يكون الشابي تلميذاً في مدرسة حافظ، لما

بينهما من اختلاف في مذاهب الفن الشعري ، ذلك أن الشابي كان يسير في شعره وفق منهج رسمه لنفسه ، نتيجة دراساته العميقـــة للأدب العربي والادب الغربي المترجم . وأول ما يلاحظ على تجديد الشابي انـه لا يؤمن بالادب العربي القديم ، وحافظ لم يصل الى هذا الحد من الثورة . فلنقرأ : « ينبغي لنـا ، اذا أردنا ان ننشىء أدباً حقيقاً بالخلود والحياة ، ألا نتبع الادب العربي في روحه ونظرته الى الحياة ، لأنها لم تعد صالحة للبقـاء في مثل هـذه العصور التي تتوثب يقظة وانتباهاً » .. « ان الصوت الغربي هو لحنـان مزدوجان في آن واحد : لحن يتصل بأقصى قرار في النفس ، ولحن يتصل بجوهر الشيء وصميمه . امـا الصوت العربي فليس مصدره النفس ، ولا جوهر الشيء ، ولكن مصـدره الشكل واللون والوضع .. وشتان بين القشرة واللباب » ..

ويقول عن وحدة القصيدة ، وهي احدى ظواهر الاختلاف البارزة في شعر حـافظ والشابي : « ان القصيدة العربية كحديقة الحيوان ، فيها من كل لون وصنف . والشاعر العربي اذا ما أراد ان يبسط فكرة من الافكار ، ألقاها في بيت او جملة واحدة اذا استطاع ، امـا الشاعر الغربي فانه يعرض امـام النفس الصورة او الاسباب والعوامل التي حرّكت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية، ثم لا يلقيها كما يُلقى الحجر الصلد عارياً جامداً ، او كما يلقي الاساتيذ تعاليمهم، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال » ..

ونأخذ في الاستزادة من ظواهر الاختلاف ، فقد ذكرت أن شخصية

حافظ، كما يراها الدكتور طه حسين ، بسيطة لا تطيق التعمق، وذكرت أن شخصية الشابي ، كما يراها الدكتور اسماعيل ادهم ، عميقة . وهـــذه الناحية من أهم ظواهر الاختلاف بينهما . وفي ايمان الشابي بالعمق ، يقول في كتابه (الخيـال الشعري) : « الروح العربية لا تستطيع ان تنظر الى الاشياء كما تنظر اليها الروح الغربية في عمق وتؤدة وسكون ، لأنها مادية تقنعها النظرة العجلى ، التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب » ..

فهل تجديد حافظ قد انتهى به الى مثل هـذه الثورة على المفهوم القديم للأدب ؟

ان حـافظ ابراهيم يختلف مع الشابي في فهم رسالة الشعر .. فالاول يراهـــا وسيلة من وسائل كسب الرزق ، وفي ذلك يقول الاستاذ حسن الزيات : « ان عقيدته التقليدية الخاطئة ، بأن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيته على نمط مسلم بن الوليـد وأبي نواس وأضرابهما ، ممن عاشوا صنائع الملوك، وحمائل على الجوائز ووسائل للهو » ..

وهـــذا الفهم يبعد كثيراً عن فهم الشابي الذي أوضحه في قصيدته (شعري) ، ومنها :

لا أنظم الشعر أبغي	به اقتنـــاص نوال
الشعر إن لم يكن	جماله ذا جـــلال
فانمـــا هو طيف	يسعى بوادي الظلال
يقضي الحياة طريداً	في ذلّةٍ واعتزال

وأزيد القارىء من هـذه الأمثلة عن رأي الشابي في الادب العربي : « أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوّف الى المستقبل ، ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقـائق ، وانه كلمة ساذجة لا تعبر عن معنى عميق بعيـــد القرار ، ولا يفصح عن فكر يتصل باقصى ناحيـة من نواحي النفوس » .. « وان البـاحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن الذي يقرأه وهو خاشع، ويسمعه وهو يصيح بكل ما في روحه من شوق، وكل ما في قلبه من شغف، كأنه يستمع الى الوحي من لسان القدرة الأزلية، ذلك الفن السماوي الذي نشعر ، حين قراءته ، باتساع أفق الحياة وبانفساح دفقـة الاحساس في قلبه ، حتى يكاد يسمع هدير العواصف بين جنبيه ، وخرير الحياة في عروق الكون ، فيعييه البحث فيه » ..

وفي الكتاب(*) ايضاً شواهد كثيرة وآراء في التجديد، تزيد القارىء ايماناً بالهوّة التي كانت تفصل مدرسة حافظ عن مدرسة الشابي. ونحن نعلم مقدار الأصالة التي يتمتع بها الشابي ، وهي التي أهّلته لأن ينشىء مدرسة واضحة الأثر في الشعر العربي الحديث. ومن هذه الشواهد رأيه في المرأة ونظرة الادب العربي اليها ، وهو يقول : « ان نظرة الادب العربي الى المرأة ، نظرة دنيئة سافلة، منحطة الى أقصى قرار من المادة ، لا تفهم من المرأة إلا أنها جسد يُشتهى ، ومتعة من متع الحس الدنيء » ..

ولست في حـــاجة الى الاشارة الى أن الغزل او المرأة لم يظفرا من

(*) الخيال الشعري عند العرب .

حافظ بنصيب يُذكر ، وان رأيه فيها لا يخرج عن الآراء الشائعة . كما لست في حـــاجة الى التنبيه الى السموّ وارتفاع المنزلة ، اللذين وصلتهما المرأة في شعر الشابي، « وصلواته في هيكل الحب » ستبقى مفخرة الشعر المعاصر، ودليلاً حياً على مذهبه والتزامه للدعوة التي جاء بها في رد الاعتبار الى هذه المخلوقة المظلومة ، حيث ننظر اليها « تلك النظرة السامية ، التي يزدوج فيها الحب بالاجلال والشغف بالعبادة » .. « تلك النظرة الفنيـة ، التي تعـد المرأة قطعة من فنون السماء يلتمس لديها الوحي والالهام » .. وقد حاول « ان يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة ، تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة ، وهما أقدس ما في الوجود » ..

وقد لاحظ القارىء في أول هـذه الكلمة ، أن عاطفة حافظ لم تعرف التنوع ، كما يقول بذلك المرحوم احمـد امين ، فهي بسيطة كشخصيته . ولذلك لا نعرف له شعراً في الطبيعة كهذا الشعر الذي نجده عند الشابي ، الذي كان يسير وفق مذهب كوّنه لنفسه وآمن معه بأن الشعر العربي في اكثر أدواره كان خالياً « من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود، حتى اذا ذكر الشاعر شيئاً من ذلك، لا تظهر فيه العاطفة الملتهبة ونشوة الشعور » ..

والذين قرأوا شعر الشابي يدركون مدى صدقه واخلاصه في الالتزام لهذه الدعوة ، ومدى حبه وفنائه في جمال الطبيعة . وهو في هذه الناحية ايضاً يختلف وحافظ . ويطول بنـا الحديث لو أخذنا في استعراض رأي الشابي في الشعر والادب العربيين ، ذلك الرأي الذي سار عليه في شعره .

وفي الكتاب نظرات ودراسة عن الخيال والأساطير العربية، ورائده في ذلك البحث عن نصيبها من العمق . وهو يفضل الأساطير اليونانية والرومانية ، لأن العربية لا حظ لها من وضاءة الفن وإشراقة الحياة .

هذا استعراض لبعض الآراء التي بسطها الشابي في كتابه « الخيال الشعري عند العرب». وقد قصدت من ذلك التدليل على الفروق الواضحة بين مدرسة الشابي ومدرسة حافظ ابراهيم . وان الشابي كان يحمل آراء واضحة في التجديد سار عليها في شعره ، ومنها يتبين لنا أن تجديد الشابي لا يدين به لحافظ ، وانما هو من وحي فطرته وشخصيته العميقة وخياله البعيد المدى وعاطفته المتنوعة الملتهبة . وهو يلتقي في هذا التجديد بالمهجريين ومطران والمدرسة النقدية التي أنشأها العقاد والمازني وشكري، وغيرهم ممن اطلعوا على الآداب الغربية .

هذا رأيي .. وان حافظ ابراهيم ليبلغ من نفسي مكانة من السمو تعز على غيره ، وكلما ذكرته ذكرت قصة اول ديوان وقع في يدي ، وقصة اول شاعر قرأت له وأعجبت به ، ولكني أرى أن حافظ ابراهيم غني بمزاياه عن ان تضاف اليه مزايا الآخرين .

الشابي وتجربته الشعرية
والعوامل الفعالة التي اشتركت في تكوينها (*)

تجربة الشابي الشعرية ، تجربة غنية وسخية . وقد ترك لنا الشابي من الآثار الادبية النثرية ، ما يكون في مجموعه تحديداً كاملاً متناسقاً لتجربته الشعرية ، ورسماً واضحاً لمعالمها. وقد استطاع ان يخرج من تحديدها باتجاه واضح ينسجم ومقومات شخصيته ، وبواعثها النفسية . وقد التزم هذا الخط وسار عليه في كل ما أنتج ، وكان خليقاً ان يتطور وينمو ، لو لم يختطفه الموت ، وهو في بداية الطريق ونضارة الشباب .

وكل تحديد للتجربة الشعرية لدى الشاعر ، لا بد ان يأخذ في اعتباره وتقديره مقومات الشخصية الفنية للشاعر ، والاتجاهات الفكرية السائدة في عصره ، وموقفه منها رفضاً او قبولاً ، وكذلك موقفه من التراث القديم ، وتحديده لمعنى الشعر كما يراه ويمارسه ويدعو اليه .

(*) أعد هذا البحث للمشاركة به في مهرجان الشابي الذي نظمته كتابة الدولة للشؤون الثقافية في تونس ، فبراير ٦٦ . وقد دعي المؤلف لحضوره ، ولكن ظروفاً طارئة حالت دون مشاركته .

فما هو الشعر عند الشابي ؟..

سؤال يتكفل الشابي بالرد عليه ..

« ان الشعر يا صديقي ، تصوير وتعبير ، تصوير لهذه الحيـاة التي تمر حواليك مغنية ، ضاحكة لاهيـة ، او مقطبة واجمة باكيـة ، او وادعة حالمة راضية ، او محترقة ثائرة ساخطة ، وتصوير لآثار هذه الحيـاة التي تحس بها في أعماق قلبك ، وتقلبات أفكارك ، وخلجات نفسك ، ورفرفة احلامك وعواطفك .

« وتعبير عن تلك الصور وهاته الآثار ، باسلوب فني جميل ، ملؤه القوة والحيـاة . يقرأه الناس ، فيعلمون انه قطعة انسانية من لحم ودم ، وقلب وشعور ، لأنهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر وعبق عواطفه ، او فلذة حية من فؤاد الحياة .

« هو هذا الاسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة، يمثل سخط الحياة او فورات العواطف ، ويكون وادعاً كضوء القمر ، حينما يمثـل طمأنينة الحياة وسكون النفس ، ويكون رقيقاً شجياً كأنات ناي بعيد ، حينما يمثل احلام الحياة ويحوي القلوب المتحابة، ويكون كئيباً مظلماً كقلب الظلام، حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر .

« فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالبـاً انسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمله ، ذلك هو الذي ينبغي لك ان تبحث عنه كلما قرأت قصيداً

او رتلت مقطوعاً او تصفحت ديواناً ، فإن وجدته فكن على يقين انك انما تقرأ شعر الحياة ، وإن أخطأته فاعلم انك تقرأ شعراً زائفاً لا قيمة له في سوق الخلود .

« ولا يهمك بعد ان تجد التصوير الصادق والتعبير الصحيح ، أكان ذلك شعراً غنائياً يتغنى بخوالج النفس وعواطف الانسان ، أم كان قصصياً يقص عليك فصول الحياة كما هي ، او يرسم لك مُثلها العليا كما توحيها اليه احلامه ، أم كان تمثيلياً يمثل لك كثيراً من حقائق النفس وصور الحياة ومشاهد الوجود .. وانما الذي يهمك ، بعد ان استوثقت ان الذي بين يديك نتاج قريحة خصبة منتجة وخيال حي صحيح ، هو ان تعرف انك تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الانساني الذي يكاد يسمو الى درجة الالهام ، او انك تقرأ مثلاً دون ذلك .

« ولكي تدرك هذه الحقيقة، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحس بتيارات الوجود اكثر مما تحس ، وتدرك من معانيه وأصواته اكثر مما ألفتَ ان تدرك، وينسيك وجودك الانساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق ، الذي يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبغ منه على نفسك . أقول انظر ، اذا كان من هذا النوع ، فاعلم انك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، وإلا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك .

« ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي، وهذا هو المقياس الذي أعرف به الشعر من غيره ، وأدرك به المثل الاعلى مما عداه . ولكني قبل ان

أفارقك ، أقول لك ان هـذا المقياس يقضي عليك ، إن اتبعته ، ان تلقي بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء الى النـار ، الى سلة المهملات . فإن كنت رقيق القلب ، جم العواطف ، فاني أنصح لك في اخلاص ، ان لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي ، وان تقنع بمقياسك ، إن كان لك مقيـاس تقدّر به قيم الشعر في عالم الادب. وإن كنت من الاخلاص للأدب والفن، بحيث لا يحزنك مشهد الاصنام البشرية تحترق في صميم الحياة ، ولا يحرك نفسك او يهز مشاعرك رؤية الاسفار الكثيرة تندثر في ظلام الاهمـال ، وتنبعث منها رائحة الموت ، فلتأخذ هـــذا المقياس ، ولتكن مخلصاً في استعماله. وأنا الكفيل بانك تكون قد حزت مقياساً دقيقاً تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد ، وبين شعر السخافات والتقاليد »(*) .

ذلك هو مفهوم الشعر عند الشابي ، وهو مفهوم يرفض ذلك التحديد التقليدي الشائع : الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، ليضع مكانه تحديداً يستمد اصوله من تصوير الحياة والتعبير عنها في مختلف مظاهرها، تعبيراً يحمل اثر التجربة الانسانية وصراع الانسان في الوجود .

ويفترض الشابي في هـــذا التحديد ، ان يكون الشاعر انساناً ممتازاً بشعوره وممتـازاً بتعبيره عن هـذا الشعور ، وان تصوراته أرقى من تصورات البشر العاديين ، وانه ما جاء هذه الحياة، وما وضعت على لسانه الكلمة الشاعرة ، إلا لـكي تحمل الى البشرية ما يفتح قلبها وعينها على أفق

(*) من النصوص النثرية التي أثبتها ابو القاسم كرو في كتابه (آثار الشابي وصداه في الشرق).

انساني جديد ، ويملأ وجدانها بتجربة جديدة عميقة وأصيلة ، تزيد من رصيدها الشعوري ، وترفع من قيمتها ، وتمنحها نظرة أرحب الى الكون وحقائق الوجود .

ويدرك الشابي خطورة هذا التعريف ، في عصر لم يألفه ، وفي بيئة لم تتجاوب معه ، فينبه الى ان هذا المقياس خليق ان يدفع بصاحبه الى التضحية بالاصنام التي أقامتها الاجيال .

وهنا نلتقي بأولى مظاهر الرفض للتجارب الشعرية القديمة التي اتخذت من ذلك التعريف المأثور شعاراً يقتل كل صدق شعوري وتعبيري ، ويضعف التمييز بين شعر الحياة الخالد وشعر السخافات والتقاليد .

وقد كان الشابي مدركاً لما ينبغي ان يكون عليه الشعر من التزام بالحالات النفسية وتعبيره عنها، وكان يشعر بما يجب على الشاعر ان يتوخاه من أداء نفسي يصاحب عواطفه المختلفة . وفي هذا ايضاً نوع من الرفض للقوالب الثابتة للتعبير عن الحالات والمناسبات ، كما حددها قدامى النقاد. فقد كان لكل من الرثاء والمدح والهجاء قواعد ثابتة .. حتى تحوّل الشعر الى صناعة تسير وفق منهج محدد . وكان حظ الشاعر يتحدد من الحظوة بمقدار محافظته عليها والتزامه لها .

ان صورة الشاعر ، لدى الشابي ، هي صورة « ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة ، التي تبصر ما لا يبصره الناس ، وتشعر باسمى ما يشعرون ، وغنصر من معنى الألوهية التي تخلق المادة الصماء حياة ساحرة وفلكاً دائراً ... ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره

فلذة من روحه ونسمة من حياته ، فاذا هي ناطقة تعبر في قوة وابداع ، عما في هذا الوجود من سحر وجمال ، ويتغنى بما يزخر به قلبه البشري من عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومُثل ... ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر ، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائهة بين نواميس العالم وبهاء الوجود »(*) .

هذا هو المنوذج الذي يضعه الشابي ، مقابلاً للنموذج الذي وضعته الاجيال القديمة وحددت وظيفته في ان ينظم الكلام الموزون المقفى ، وينذر ملكاته للمدح والهجاء والارتباط بالاحداث العامة والمناسبات العابرة .

كان ذلك هو النموذج الذي قدمته بيئته المعاصرة له ، وهو الذي قامت ضده ثورة المجددين ، لخلق الشاعر الذي يضطلع برسالة الشعر وفق مفهومها الانساني .

ذلك هو هذا النموذج الذي حاول ان يبحث عنه الشابي ، دون ان يجده فيما حوله من بيئة أدبية ، انحصر همّ الشعراء فيها على الارتباط بالمناسبات العامة والاحداث الطارئة . وذلك هو المثال الذي تطلّع اليه في شوق ، وسعى الى ان يحققه وان يعيشه ، وان يكون في مستواه كما تمثّل في ذهنه .

وقد تكوّن هذا النموذج في وجدانه ، من رفضه للنماذج القديمة التي

(*) (آثار الشابي وصداه في الشرق) لأبي القاسم كرو .

قدمتها عصور الانحطاط الادبي ، ومن اطلاعه على النماذج التي قدمتها العصور الحديثة ، في الشعر الذي أبدعته ، وفي القيم النقدية التي حاولت ان تؤكدها ، وتفتح بها نافذة جديدة تطل على معنى الشاعر ووظيفته كما تبدو في الآداب العالمية التي تاثرت بها هذه المدارس .

وقد دفعه ايمانه بهذا النموذج، الى ان يحمل معولاً يهوي به على الجذوع الخائرة، ويلتفت اولاً الى واقع البيئة الادبية في بلاده، فيرى ان شعراءها « أرواح مقفرة مجدبة فارغة ، لا حس فيها ولا فن ولا حياة ، ولو كانت أعماقها تحتوي على تلك القوة الحية الملتهبة ، لكانت آثارها مطبوعة بطابعها المشبوب ، فان الذرة لتخترق الصخر اذا استيقظت فيها قوة الحياة الكامنة. وكيف تريد من شعرائنا التونسيين ان يكونوا غير ذلك، وهم انما يعيشون على هامش الحياة ولا يخوضون أحشاءها ، ويستوحون صفحات الكتب ولا يستوحون هذا الوجود ، ويصغون الى هذر الشعب ولا يصغون الى أصوات قلبه الكبيرة ، ويتغنون برغبات المجتمع الزائلة ولا يتغنون بمطامح الانسانية الخالدة » ..

ومن الواضح ان الشابي يتجاوب في ذلك مع الدعوات التي حملتها المدرسة الجديدة ، التي كانت تندد بتسخير الشعر للمدح والرثاء والتهاني والمعالجات الصحفية للأحداث والمناسبات والمشاكل الاجتماعية والسياسية. وكان الشابي يرفض ادب هذه الفئة، رغم اعترافه بما تهيأ لها من صلة بالقديم ظهرت في صياغتها وتعبيرها الجميل ، كما كان يرفض ، في الوقت نفسه ،

التجديد السطحي المبتذل الذي يقتصر على التفاعل المرتجل ، دون أن يرفده اطلاع واسع وشعور عميق .

وبين يدي هاتين الطبقتين ، كان مصير الشعر في بلاده وفي عصره :

« طبقة لم تكوّن لنفسها ثقافة ، الا مما يحمله الينا الشرق من روايات ومجلات وصحف مختلفة الاحجام والاشكال ، وما تطالعه من خلال ذلك من ادب المدرسة الجديدة في المهجر والمشرق . وطائفة هذا حظها من الثقافة ، لا ينتظر منها اكثر من هذا الادب الفج السخيف المهزول في روحه واسلوبه ومعناه .

« وطبقة كوّنت لنفسها ثقافة صالحة من قديم الادب وحديثه، فكان لها الاسلوب الجميل ، والنسيج الرصين ، والصناعة البارعة .. وقد كنا ننتظر ان نجد عندها ، الى جمال التعبير وقوته ، طرافة المعنى وعمق التفكير وحيوية الروح الشاعرة ، فخابت آمالنا فيها . فان شعراءها ما فتئوا يسخّرون أشعارهم للمدح الكاذب ، والرثاء المصنوع ، والمعاذير والتهنئات ، وغير ذلك من أكاذيب الشعر . وإن خرجوا عنها فالى مواضيع صحفية مبتذلة باردة يسمونها في غفلة مضحكة شعراً اجتماعياً . قد كنا نتعلل للنشأة الاولى منهم ، بأنها استيقظت على ضوء فجر جديد لا عهد لأحلامها به ، فلما أرادت ان تجدد الشعر ، مجاراة لتياره ، لم تجد أمامها غير الصحف من بدع هذا العصر ، فاخذت في حيويتها ، تقلد الصحف في الغاية والموضوع . وبذلك اصبح الشاعر صحفياً ينظم في أحداث عصره ومشاكل قومه ، حتى لقد نظموا في أزمة

المعاش وغيرها من توافه الدنيا ومحقرات الامور »(*) ..

لقد كان الشابي يدعو للتجديد ويعمل من أجله . وقد كان شعره اضافة سخية للشعر العربي المعاصر، فلم يكن صوتاً مردداً لتجربة سابقة، ولكنه كان صوتاً أصيلاً عبّر عن شخصيته في قوة وذاتية متفردة .

ولقد كان للشابي موقف من التراث القديم . وما من شاعر إلا دخل التراث القديم في تكوينه الوجداني والتعبيري . وقد كان الشابي على صلة بهذا التراث القديم ، فهذا الاسلوب الذي استوى له في مرحلة النضج على خير ما تستوي الأساليب قوة وصفاء وموسيقية لفظية ونفسية ، انما كان مستمداً من عمق صلته بالتراث الذي قرأه فادمن قراءته ، ودخل في تكوينه كعامل اساسي ورافد غزير لتجربته الشعرية .

ولقد نشأ الشابي في بيئة فكرية ، تميزت بالمحافظة على التراث والغيرة عليه ، واعتماده وسيلة اساسية في التكوين الثقافي للفرد . وتلقى تعليمه في الجامعة الزيتونية، وهي احدى المعاقل الكبرى للثقافة العربية الاسلامية.

وقرأ الشابي ما تهيأ له ان يقرأه من الشعراء القدامى ، الذين اكتشف عن طريقهم معنى التجربة الشعرية التي مر بها الشعر العربي، منذ الجاهلية حتى العصر الحديث . فقد كان على علم بهذه الرحلة الطويلة التي قطعها هذا الشعر ، وهو ايضاً على صلة قوية بأعلامه ، وإدراك بصير بمواطن القوة والابداع فيه . وهو في ثورته على القديم ، لم يكن ثائراً سطحياً او

(*) (آثار الشابي وصداه في الشرق) .

ثائراً جاهلاً بهذا التراث . وكتابه « الخيال الشعري عند العرب » ، دليل على ان الشابي قد كوّن لنفسه صورة عن التجربة الشعرية القديمة، وشعرَ بأنها لم تعـــد تلائم التجربة الحديثة للشاعر الحديث الذي ينبغي له ان يرتاد آفاقاً جديدة .

كانت ثورة الشابي ثورة عنيفة عارمة ، ولكنها لم تفقـــد احترامها وتقديرها للقديم ، فهو يشعر باهمية الدور الذي أدّاه هذا الادب ، ويكبر ما قدمه للأجيال القديمة من تعبير عن تجربتهم في إطار عصرهم ومفاهيمهم السائدة ، ولكنه كان يدعو الى شعر يعـــانق التجربة الحديثة للانسان العربي الحديث ، ويعبر عن تجربته التي يخوضها في وجوده المعاصر . انه يبحث عن تلاؤم بين الحيـاة التي نعيشها ، والتعبير عنهـا ، فلم يكن من المعقول لديه ان يعيش فكرنا على صور المـاضي ، ويتخذها وسيلة تعبير عن حاضر منفصل كل الانفصال عن قيم العالم القديم. انه يبحث عن إضافة ابداعية ، والابداع لا يتم الا بالتجاوز والتخطي للقديم .

ولقد كان الشابي يدعو للتجاوز ويعتبره ابداعاً ، ويرى في الوقوف عند القديم جموداً .

« عنـدما أقول ذلك الرأي عن الادب العربي ، لا أزعم انه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها ، ولكني أقول انه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالي ولأميالنا ورغائبنا في هذه الحياة . فقـد اصبحنا نرى رأياً في الادب لا يمثله ، ونفهم فهماً في الحياة لا نجده عنده ، ونطمح بأبصارنا الى آفاق اخرى لم تحدثنا أحلامه ولا يقظاته . لقـــد اصبحنا

نتطلب أدباً جيداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور ، نقرأه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا وأحلامنا ، وهذا ما لا نجده في الادب العربي القديم. لقد اصبحنا نتطلب أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة ، بما فيها من شوق وأمل . وهذا ما لا نجده في الادب العربي ولا نظفر به ، لأنه لم يُخلق لنا نحن أبناء هذه القرون ، وانما خُلق لقلوب أخرستها سكينة الموت . أما نحن ، فما زلنا أبناء الحياة ، ولهذا فلا ينبغي لنا ان ننظر الى الادب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي ان يكون ، ليس لنا الا احتذاؤه ومحاكاته في اسلوبه وروحه ومعناه ، بل يجب ان نعدَّه كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس إلا . اما ان يسمو هذا الاعجاب الى التقديس والعبادة والتقليد، فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا الآن، لأن لكل عصر حياته التي يحياها ، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب »(*)

ذلك هو المحور الاساسي الذي تدور عليه أغلب الآراء التي ضمنها محاضرته الجريئة « الخيال الشعري عند العرب » . ولا نكران في ان هذه المحاضرة تنطوي على تحامل عنيف على الروح العربية ، كما تنطوي على ظلم فادح في المقارنة بين الشعر العربي القديم والشعر الغربي الذي أنتجته عصور الرومانسية ، دون مراعاة للظروف والبيئات . وأي ظلم أفدح

(*) (الخيال الشعري عند العرب) لأبي القاسم الشابي .

من ان نضع شاعراً جاهلياً مثلاً ، في ميزان واحد مع لامارتين ؟.. هكذا كان شأن الشابي في هذه المحاضرة .

كان الشابي يبحث عن صورة جديدة في ادب قديم ، وحين تعذر عليه العثور على هـذه الصورة التي تشبه الصورة التي خرج بها من قراءته لأدباء الرومانسية الغربية ، حمل على ذلك الادب حملة جائرة . وخلص منها الى ان هذا التراث مستنفد ، عاجز عن مماشاة الحياة الجديدة، ودعا الى تخطيه بإبداع جديد ، واستلهام التجربة الحديثة للانسان العربي مع الانفتاح على الآداب العالمية التي رأى فيها المثل الاعلى للادب .

« ان الادب العربي ادب لا سحر فيه ولا إلهام ، وانه ينبغي لنا ، اذا أردنا ان ننشىء ادباً حقيقياً بالحيـاة والخلود ، ألا نتتبـع الادب العربي في روحه ونظرته الى الحياة، لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هذه العصور ».

ويقـارن الشابي بين صورة الشاعر العربي ، والشاعر الغربي ، بين ظاهرة الرصد الخارجي للتجربة الشعرية كما تبـدو عند الشاعر العربي ، التي تقف به عند حدود الاحاطة الشاملة بالمشهد الخارجي، وبين الاستبطان الداخلي والتأمل الذاتي للتجربة التي تفيض من نفس الشاعر فتخلع معانيها على الاشياء .

« الشاعر العربي ، اذا عنّ له مشهد جميـل استخفّ نفسه واستفزّ شعوره، عمد الى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله، فاعطى منه صورة واضحة او غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقته في الرسم والتصوّر، دون ان يكشف عما أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكرة وعاطفة وخيال،

كأنما هو آلة حاكية ليس لهـــا من النفس البشرية حظ ولا نصيب ، فهو كالمصور الفوتوغرافي ، لا يهمه إلا التقـاط الصور والاشباح وإظهارها كما هي ، دون ان يرسم معها صورة في نفسه ولوناً من شعوره .

اما الشاعر الغربي فانه يفتح امام القارىء مغاليق نفسه ، ليريه مـا أهاجه بهـا المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين ، ويجعله يحس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتزّ في أعماق نفسه ، فملأ جوانبها بالأنغام ، وأهاج بهـا سواكن الاحلام . ثم هو إزاء ذلك ، إما انه يصف المنظر ويسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة ، وإما ان يسكت عن المشهد. وذلك هو علة ما نحسه من ان الصوت الغربي أقوى دوياً وأبعد رنيناً من الصوت العربي الخـافت الضعيف ، لأن الصوت الغربي هو لحنـــان مزدوجان في آن واحد : لحن يتصل بأقصى قرار في النفس، ولحن متصل بجوهر الشيء وصميمه . امـــا الصوت العربي فليس مصدره النفس ولا جوهر الشيء ، ولكن مصدره الشكل واللون والوضع .. وشتان بين القشرة واللباب »(*) ..

وتلك نتيجة طبيعية للروح العربية التي يراها الشابي :

« الروح العربية خطابية مشتعلة ، لا تعرف الأناة في الفكر فضلاً عن الاستغراق فيه ، ومادية محضة لا تستطيع الالمام بغير الظواهر ، مما يدعو الى الاسترسال مع الخيال أبعد شوط وأقصى مدى . وبين هاتين النزعتين،

(*) (الخيال الشعري عند العرب) للشابي .

الخطابية والمادية اللتين ذهبتا بها في الحياة مذهباً خاصاً، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة ، لا تطمئن الى زهرة حتى تغادرها الى اخرى من زهور الربيع ، ولذلك فهي أبداً متنقلة وهي أبداً حائمة » (*) ..

ويعزو الشابي هذه النظرة ، التي ظلت تسود الادب العربي بشكل واحد في جميع العصور ، وجعلت منه نسخة مكررة في الروح واسلوب المعالجة ، مما أسبغ عليه طابع الرتابة والقوالب الثابتة ، الى الاسباب التالية :

١ ـ سيطرة التقاليد الادبية .

٢ ـ الفهم الخاطىء لمعنى الادب ورسالته في الحياة ، والنظر اليه على انه قيمة لفظية لغوية .

٣ ـ عدم اطلاع العرب على آداب الأمم الاخرى .

ومن هنا كانت ثورة الشابي على التقاليد الادبية التي تنظر الى القصيدة العربية كوجود ثابت ، وإنكاره لسيادة المفاهيم النقدية القديمة ، ودعوته الى العزوف عن النماذج القديمة التي استنفدت أغراضها ، ولم تعد تحمل أي مظهر تعبيري عن تجربة الانسان ، وانما اصبحت لعبة بيانية . ومن هنا ايضاً كانت دعوته الى ادب جديد لا يرتبط بهذا القديم في روحه ومعناه .

حاول الشابي ان يشارك في تصحيح معنى الشعر بالأمثلة الحية التي قدمها ، والتي كانت جديدة في روحها ومعالجتها ، وبالموقف الثائر الذي

(*) (الخيال الشعري عند العرب) للشابي .

اتخذه من الشعر القديم والشعر التقليدي المعاصر له. فقد كان يرفض النظر الى الشعر على أنه قيمة لفظية، ولكنه رسالة وجدانية تعبر عن أعماق الانسان وذاته الفريدة. وشعره كله تأكيد لهذا المعنى الذي وهبه حباته، فارتفع بالشعر عن النظرة القديمة التي لازمته، ونظر اليه على انه جد لا لهو فيه. وقد أخذه فعلاً بجدّية، وأعطاه من قلبه كل شيء، حتى كان لنا منه ذلك الشاعر العاطفي الرقيق الذي تتغذى كلماته من وجدانه.

وانطلاقاً من هذه الفكرة التي كوّنها عن الادب العربي الذي لا يسدّ حاجتنا النفسية – في رأيه – كانت دعوته الى الانفتاح على الآداب العالمية، والاستفادة منها والاقتداء بنماذجها الجديدة على الوجدان العربي.

ولم يكن الشابي على صلة مباشرة بهذه الآداب، فقد كان يجهل اللغات الاجنبية، ولكنه استطاع ان يتمثل معالم هذه الآداب من خلال الترجمات والتعليقات التي حفل بها عصره، مما جعله على صلة واعية بهذه الآداب قد تفوق صلة العارفين بها في لغاتها الاصلية. فقد كان جهله للغة أجنبية يدفعه الى ان يتلقاها في جدية، وان يقرأها في امعان وتعمق، وان يتفهمها تفهماً واعياً دفعه الى التعصب لها والايمان بها كوسيلة للخروج بالادب العربي من جموده.

كان يؤمن بالاتصال بالآداب الاجنبية والخروج من الطريق الذي سلكته الاجيال في احتذاء النموذج الجاهلي الثابت الذي سيطر على مختلف العصور الادبية التالية. ويعتقد الشابي ان الغرور العربي هو المسؤول عن انغلاق الادب العربي وعدم تفتحه على التجارب الادبية الاخرى،

« فقد كان العرب معتزّين بأدبهم يحسبونه كل شيء في العالم ، فلم يجدوا حاجة تدفعهم الى ترجمة الآداب الاخرى، وظل المثل الاعلى الذي تحتذيه العصور الاسلامية في روحه واسلوبه هو الشعر الجاهلي». ومن المهم هنا ، ان نعرف العوامل الفعالة التي شاركت في تكوين هذا الموقف من التراث الادبي ، والدعوة الى التجديد ، وتقليد الادب الغربي في روحه ومعناه . فالشابي الذي كان يرفض ان يكون أدبنا الحديث صورة للادب العربي في روحه ومعناه ، كان يدعو الى تقليد آخر للآداب الغربية التي فتن بها. وزاده جهله باللغة شعوراً بفتنتها وايماناً بانها فردوسه المفقود الذي لن يدخله ، وانه عليه ان يقنع بما ينقل اليه من صوره وفنونه .

وأهم هذه الاسباب : مزاجه . فقد كان الرجل مطبوعاً على مزاج رومانسي ، وكانت أحبّ الصور الى نفسه تلك التي يقدمها الادب الرومانسي، بما فيها من سحر وخيال وعاطفة حادة عميقة ، وكان المقياس الذي يأخذ به الادب مقياساً ذاتياً . فهو قريب الى نفسه اذا خاطبها بما تريد ، بعيد عنها اذا خاطبها بطريقة غير هذه التي ألفت سماعها لدى أدباء الرومانطيقية الغربيين والمتاثرين بهم من العرب . وأغلب النماذج الادبية التي ساقها دليلاً على وجهة نظره في كتابه « الخيال الشعري عند العرب »، نماذج من الرومانسية الغربية ومن شعرائها .

وأغلب ما كان يفتقده في الادب العربي ، هو الاحساس الرومانسي نحو الانسان والطبيعة .

والعامل الثاني، في هذا الموقف ، عصره . ولقد عاش الشابي في عصر

حفلت فيه الحياة الادبية بمختلف النشاطات الفكرية ، والمراجعة العامة لمختلف المفاهيم الشائعة . وكانت الدعوات التجديدية التي برزت في مدرسة الديوان ، ومدرسة المهجر ، ومدرسة أبوللو . وكان الشابي يتابع هذه المعارك ، ويتأثر بها ، ويشارك فيها . وكان موقفه يميل به الى الجديد والتجديد . وان كثيراً من الاصول التي تتكون منها آراؤه ، يمكن ردّها الى هذه المدارس التي ذكرناها والتي تأثر بها الشابي تأثراً واضحاً، باستثناء مدرسة أبوللو التي كان من أعلامها البارزين ولم يكن من تلاميذها .

وقد يكون من المفيد ان نقف وقفة عابرة عند الآراء الادبية التي كانت شائعة في عصر الشابي ، لكي ندرك حقيقة موقفه .

كان العقاد يحمل راية التجديد ، وكان يخاصم شوقي من أجل هذا التجديد ، وكان يكتب المقالات العديدة في تأكيد مفهومه للشعر ، ويدعو الى ظهور شخصية الشاعر في شعره ، وان يكون شعره وثيقة نفسية تعرّفنا بمزاجه ونظرته الى الحياة . وكانت هذه الدعوة تؤكد الجانب الذاتي الذي يلتقي مع المزاج الرومانسي . وكان العقاد ينادي بوحدة القصيدة والنظر اليها ككائن حي لا يمكن نقل جزء منه مكان جزء آخر . وان فشل العقاد نفسه في تأكيد هذا المفهوم على شعره . وقد صحح الاستاذ العقاد كثيراً من المفاهيم التي تتصل بالشعر ، ومنها وظيفة التشبيه ، وتحديد معنى العصرية في الشعر ، بحيث لا يتحقق التجديد بوصف المخترعات والمكتشفات .

وكان المازني يكتب دراساته النقدية عن ابن الرومي وبشار ، ويدعو

الى الصدق في الاحساس والتعبير . وكان متأثراً بالادب الغربي ، متعصباً له ، وكان يفضل الشعر الغربي ويبرز عيوب الشعر العربي . ويفنـــد الدعوى القائلة بأن العرب أشعر الأمم قائلاً : « لسنا نحـاول الزراية على العرب او الغض من شعرهم ، وانما نريد ان نقول أن العرب ليسوا أشعر الأمم . وان احداً ليقرأ آثار الغرب ، فيملك قلبه ما يتبين فيها من سمات الصدق والاخلاص ومخايل النبل والشرف، وما يستشفه من دلائل الاحساس بالجمال وحبها وعبادتها في جميع مظاهرهما، وما يتوسمه من ذكاء المشاعر ويقظة الفؤاد وصدق النظر وصفـاء السريرة وعلوّ النفس ، وتنـاسبها وتجاوبها مع كل ما يكتنفها من مظاهر الطبيعة » .

« هذه حقيقة لا موضع فيها للشبهة ، ومـا ينكر أن الشعوب الآرية أفطن لمفـاتن الطبيعة وجلال النفس الانسانية وجمال الحق والفضيلة إلا كل مكابر ضعيف البصيرة ، او رجل أعمته العصبية البـاطلة عن ادراك ذلك » ..

وكان « نعيمة » قد أصدر كتابه « الغربال» ، يحمل هجوماً على المدرسة التقليدية ، ودعوة الى أدب جديد . وقد كان له أثر كبير في توجيه حركة التجديد .

وكان جبران يكتب : « لـكم لغتكم ولي لغتي » .

وكان الدكتور طه حسين يعيـــد تقييم التراث الشعري العربي ، ويدرسه وفق نظرة جديدة تنزع عنه كل ما أُحيط به من إجلال وتقديس ، وينشر ذلك في سلسلة مقالات تناولت أعلام الشعر العربي القديم ، كما كان

يوجه نقدات عميقة الى شوقي وحافظ ، ويتابع انتاج الشباب من الشعراء المحدثين .

وقد كان لكل ذلك أثره البارز في تكوين الشابي الثقافي، حيث تطلع طموحه منذ اليوم الى قادة الفكر الحديث في الشرق والمهجر، ومن هناك استمد القاعدة الاولى التي قامت عليها تجربته الشعرية .

اما في تونس فقد كانت السيادة للمدرسة التقليدية، ولكن هذه السيادة لا تلبث ان تتنحى عن مكانها من الصدارة امام طموح الشباب ووثباتهم الجديدة .

وقد كان الشابي ينكر على الشعراء المعاصرين له انعدام الطابع الذاتي في شعرهم ، وفقدان الملامح المميزة لكل منهم . وكان في ذلك يصدر عن دعوته التي تعتمد على الوجدان الذاتي ، ويتأثر في ذلك بمفاهيم مدرسة الديوان والعقاد بصفة خاصة .

« ما هذا التمسك بالقديم والجمود عليه، وقد حفيت الاقلام في افهامهم معنى الشعر وموضوعه ؟ وما هذا التشابه الأليم بينهم في الروح والمنزع والخيال ؟ ما لنا نجالسهم ونتحدث اليهم ، فاذا لكلٍّ ملامحه وصفاته واسلوبه الخاص في فهم الاشياء ، وطريقته الفريدة في الاشارة والنظرة والحديث . ثم نفارقهم ونرجع الى أشعارهم نتلمس تلك الفروق الواضحة التي كنا نشاهدها وهم يتحدثون ، فاذا ملامح متشابهة وأساليب متقاربة وأرواح متماثلة ، كأنها منتسخة من أصل واحد مخبوء في عالم الغيب ، إلا فروقاً خافتة لا تكاد تبين ، بحيث لو أُلقيت الى الناقد مجموعة من شعر

هؤلاء مجردة عن أسمائهم ، لأعجزه ، مهما أجهد نفسه ، ان يردّ كل شعر الى قائله ، لأنك لا تجد للواحد منهم اسلوباً ولا روحاً ولا لوناً من ألوان يمتاز به على غيره ، كما يمتاز بملامح وجهه ونبرات صوته وطريقة فهمه وحديثه »[*] .

« الحقيقة انهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنهم، حياة رفيعة سامية، والاندماج فيها بكل ما لهم من روح وحس وتفكير وخيال، حتى ينطبع شعر كل منهم بطابعه الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره »[*] .

ولقد كان اللون السائد من الشعر ، هو هذا الذي زعم له اصحابه صلة بالجديد والتجديد ، نشأت عن اتخاذه موضوعات جديدة من المناسبات والأحداث العامة ، ومتابعة المخترعات والمكتشفات . وقد كان هذا اللون من الشعر شائعاً في تونس ، كما كان شائعاً في بقية البلدان العربية . وكان الشابي يرفض هذا الاسلوب الذي يجعل وظيفة الشاعر واعظاً اجتماعياً ومعلقاً صحفياً : « وإن ارتفعوا فانما ليخاطبوا الشعب بذلك الشعر الاجتماعي على طريقة وعّاظ المنابر وأساليب كتاب الصحف . ويا ليتهم يعلمون أن للشعب روحاً كأرواح الاطفال ، وأقداماً كاقدام الجبابرة . وان انشودة تغني فتنة الدنيا وجمال الوجود ، لأجدى على روحه وأعوَد عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة ، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة الحياة ، التي ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين »[*] .

(*) من النصوص النثرية للشابي — آثار الشابي وصداه في الشرق .

ونتبين في هذا الكلام أثر الآراء التي ظهر بها الاستاذ العقـاد ، والتي ضمنها كتبه ومقالاته العديدة التي اطلع عليها الشابي ، وفي مقدمتها كتاب « ساعات بين الكتب » ، الذي قرأه الشابي وأُعجب بـه ، واستوقفته منه الآراء المتصلة بتصحيح مفهوم الشعر. وقد تضمن هذا الكتاب عدة فصول في دراسة الشعر بمصر، وهي من الفصول البارزة المحددة للاتجاهات النقدية عند هذا الرائد الكبير .

وعند العقاد يجب ان نقف، فنطيل الوقوف. فقد كان العقاد شخصية فكرية مؤثرة في توجيه الشابي الفكري، وفي تحديد معالم التجربة الشعرية لديه . ومن السهل ان نكتشف هـذا التأثير فيما كتبه الشابي حول الخيـال الشعري عنـد العرب ، وفي هـذه الآراء التي نثرها حول الشعر في بيئته التونسية .

ومن الواضح ان الشابي كان يعجب بالعقاد اعجاباً عميقاً لا نظير له ، وكان يتابع ما يكتبه من مقالات عميقة في تصحيح مفهوم الشعر وتثبيت دعـائم المدرسة التي يشترك في زعـامتها مع المـازني وعبـــد الرحمن شكري . وقـد التقت حينذاك مدرسة الديوان بمدرسة المهجر ، على تصحيح معنى الشعر ورسالته. وكان الشابي قد تفتح ذهنه على القضايا التي كانت تثيرها في صراعها مع شعراء الجيل من أتبـاع المدرسة التقليدية . وقد استفاد منها كثيراً في تكوين نظرته وأفكاره الأدبية ، التي حرّكت تمرّده فيما بعد ، على المدرسة التقليدية في بلاده .

وبشيء من البحث والاستقصاء ، نستطيع ان نردّ كثيراً من الآراء التي عالجها الشابي في مقالاته النقدية ، الى العقاد ومدرسته .

١ ـ نلاحظ ان النظرية التي تقوم عليها محاضرة الشابي « الخيـال الشعري عند العرب » ، قد استمدَّها الشابي من قراءاته للعقاد والمازني .

ونحن نلتقي بأصول هذه الفكرة فيا كان يكتبه العقـاد ، وفي مقدمة كتبها لديوان « عبْد الرحمن شكري » . ذكر : « ان الآريين أقوام خيـال نشأوا في أقطار طبيعتها هائلة ، وحيواناتها مخيفـة ، ومناظرها ضخمة رهيبـة .. فاتسع مجـال الوهم ، وكبر في أذهانهم جلال القوى الطبيعية . ومن عادة الذعر ان يثير الخيالات في الذهن ويجسم له الوهم، فيصبح شديد التصوّر ، قوي التشخيص لما هو مجرد عن التشخيص والأشباح .

« والساميون أقوام نشأوا في بلاد ضاحية ليس حولهم مـــا يخيفهم ويذعرهم ، فقويت حواسهم ، وضعف خيالهم . ومن ثم كان الآريون أقدر في شعرهم على وصف سرائر النفوس ، وكان الساميون أقدر على ظواهر الاشياء ، وذلك لأن مرجع الاول الى الاحساس البـاطن ، ومرجع هـذا الى الحس الظاهر . السامي يشبّـه الانسان بالبدر ، ولكن الآري يزيد انه يمثل البدر حيـاة كحياة الانسان ، ويروي عنه نوادر الحب والمغـــازلة والانتقام كانه بعض الأحياء ، وهذا لا مراء ، أجمع لمعاني الشعر ، لأنه يمد من وشائج التعــاطف ، ويولد بين الانسان ومظاهر الطبيعة وداً وائتناساً يحطها الشعر السامي ، ليس وقفاً على الأحياء ، بل على النـاس دون سائر الأحياء .

« وهذا الفرق بين الآري والسامي في التصوير ، هو السبب في اتساع الميثولوجيا عند الآريين وضيقها عند الساميين ، فليست الميثولوجيا إلا إلباس قوى الطبيعة وظواهرها قوى الحياة ، ونسبة أعمال اليها تشبه أعمال الأحياء . وتلك طبيعة الآريين ، فانهم ، كما قلنا ، قد امتازوا بقوة التشخيص والخيال على الساميين » ..

وكان المازني يؤكد هذه الآراء في دراساته على النحو الذي تقدم .

٢ ـ كان الشابي ينكر الجمود ، ويدعو الى الطابع الذاتي ، وينعي على شعراء المدرسة التقليدية (التشابه الأليم بينهم في الروح والمنزع والخيال) . وهو في ذلك يلتقي بالاستاذ العقاد ، ويستفيد منه فيما أثبته من آراء حول الشعر في مصر حين يقول :

« لمَ هذا التشابه المشؤوم بين الشعراء المصريين ، الذي يحيل اليك أنهم كلهم خلقة واحدة صُفّت في قوالب يميزها الطول والعرض ، ولا يميزها عرض من أعراض النفوس او سر من أسرار الحياة ؟. ولمَ هذا الضيق الذي يجمعهم كلهم في حظيرة واحدة تحويها النفس العادية بحذافيرها وتفتأ زمانها على سمة لا يعتريها اختلاف التكوين ولا تمايز الأوضاع والأشكال. يصفون الربيع جميعاً، فلا هذا مميز بإدراك الظلال والألوان ، ولا ذاك مميز بطرب الألحان والأصداء، ولا غير هذا ولا ذاك مميز باستكناه الخفايا واصطياد الأطياف والأرواح ، ولا غير هؤلاء مميز باشواق الهوى ونزعات الشعور وخفقات الاحساس ، وأشباه هذه المزايا التي يشملها الربيع ويعطي كل شاعر منها بمقدار ، وانما هم جميعاً في تشبيه الورود

بالخدود ، والبلابل بالقيان ، والأزهار بالأعطار ، وما الى ذلك من الصيغ المحفوظة ، والصفات المعهودة ، والربيعيات التي لا لون فيها ولا صدى ولا حس ولا .. ربيع ؟..

« لمَ هذا ؟ لمَ لا يكون التمايز بين شعرائنا كما يكون بين شعراء الأمم الشاعرة ؟ لمَ لا نرى في كلامهم سعة للكون ولا عمقاً للحياة ؟ لمَ هذا الضيق الحيواني الذي يزري بشرف الانسانية وينزل مقام الاحساس والادراك »؟.

٣ ـ والشابي لا يقرّ اعتزاز العرب بأدبهم والنظر اليه على انه أرفع الآداب العالمية . ولست أشك في انه استفاد من نقدات العقاد في هذا السبيل ، فقد كان الاستاذ العقاد يقول :

« تقديم الشعر العربي لأنه عربي عقيدة ما كان للشك اليها من سبيل. وتقديم الشعر الجاهلي على كل شعر لأنه أمعن في العربية وأعرق في القدم، وهو كبرى فضائل القبائل البدوية التي تؤمن بالنسب والوراثة ايمانها بالأصنام والأوثان ، وهو لازمة تلك العقيدة ونتيجتها المنطقية في أذهان طلاب الأدب القديم، ولكننا نحن اليوم بعيدون عن هذا المذهب : لا نشعر له بقوة ولا نتوجس منه شراً ، ولسنا نحس من فلوله المشتتة بقية نخاف لها قوة ونخشى لها عزيمة. فليس الشعر اليوم خاصة عربية ، ولكنه خاصة انسانية ؛ وليست البلاغة اليوم مزية لغوية ، ولكنها مزية نفسية . وهذه عقيدة مفروغ منها ، قلَّ ان يماري فيها من يُحسب له رأي ويُسمع عنه كلام » ..

٤ ـ عندما كتب الشابي ، منددا بالشعر الاجتماعي الذي يُنظم على

طريقة وعاظ المنابر وأساليب كتاب الصحف قائلاً : « ان للشعب روحاً كأرواح الاطفال وأقداماً كأقدام الجبابرة ، وان انشودة تغني فتنة الدنيا وجمال الوجود لأجدى على روحه وأعوَد عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة الحياة التي ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين » ..

كانت تتمثل امامه هذه الكلمات التي أكدها العقاد في اكثر من مناسبة:

« وهات لنا الشاعر الذي ينظم قصيدة واحدة يحبب بها الزهرة الى المصريين ، وأنا الزعيم لك بأكبر المنافع الوطنية ، وأصدق النهضات ، وأهنأ مسرات المعيشة ومباهج الحياة. فان أمة تحب الزهرة، تحب الحدائق وتحب التنظيم والتنسيق، وتحب النظافة والجمال وتحب العمارة والاصلاح، ولا تطيق ان تعيش في الفاقة والجهل والصَّغار . وهات لنا الشاعر الذي يعلمنا الغزل الجميل ، وأنا الزعيم لك بأمة من الرجال الكرماء والنساء الكرائم والأبناء النجباء .. يدرجون في حجر العطف والذوق والصحة. لأن الشاعر الذي يعرف كيف ينظم الغزل ، يعرف كيف يقوّم المرأة بقيمتها في الأمة ، وكيف يهذب البيوت ويشترع القوانين والدساتير . بل هات لنا الشاعر الذي يعلمنا اللهو والطرب ، وأنا الزعيم لك بأمة تعيش عيش الآدميين ، ولا تُسخَّر تسخير النعام وتعمل ليلها ونهارها للقوت الحيواني ، فالشعر شيء يتصل بالانسان من حيث هو كائن حي ، لا من حيث هو ابن وطن او ابن جامعة اخرى من لغة او عقيدة » ..

ولعل من أبرز ما تميزت به مدرسة الديوان الدعوة الى وحدة القصيدة

كما عملت المدرسة المهجرية على تعميق هذا المفهوم ، وخاصة عن طريق الكتابات النقدية للاستاذ « نعيمة » . ومن هنا تأثر الشابي بهذا المفهوم وكتب يقول : « ان القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي ، وانما هي كون صغير تُحشر فيه الأفكار حشراً ، وتُرصّ فيه المعاني رصّاً » ..

والحقيقة ، أن العلاقة بين الشابي والعقاد كانت علاقة عميقة ذات أثر واضح في تكوين اتجاهه الفكري وتحديد معالم تجربته الشعرية . رأيناه يقرأ ما يقع من كتبه ودراساته في اعجاب كبير . رأيناه يتعصب له ضد المرحوم الرافعي، وينعت روح الرافعي بأنها «مستثقلة مرذولة، واسلوبه متكلف معوج» . وهذا لا يصدر الا عن نفس امتلأت اعجاباً وتقديراً للعقاد ، الى الحد الذي لم تطق ان يتعرض لمثل هذا النقد .

ولا غرابة في ان يعجب الشابي بالعقاد ، فلقد كان علَماً من أعلام الادب الحديث ورائداً كبيراً من روّاده البارزين ، وانما الغريب حقاً ان يمضي الشابي مع هذا الاعجاب الى الحد الذي يبدي فيه اعجاباً بشعر العقاد، فيكتب لصديقه « الحليوى » عن ديوان « وحي الاربعين » : « يقع في نحو التسعمائة بيت ، في شكل جميل صغير ، وطبع متقن وورق مختار ، وفيه ما شئت من فلسفة ناضجة في الحياة والناس، وغزل مطلول، ووصف شامل نفاذ وسخر لاذع عميق ؛ أما اسلوبه فهو أرقى من اسلوب أشعاره الماضية . ولا غرو ، فهو شعر العقاد نظمه حوالي العام الاربعين من سني

حياته ، وهذا وجه التسمية . واني أرجو ألا يفوتك اقتناؤه »[*] .

ولكن هـذا الرأي لا يلقى تاييداً من صديقه الأديب الحليوي الذي يعجب هو الآخر بالعقاد كاتباً ، ولكنه لا يقر له بالشاعرية: « رأيي المختصر فيه انه يعجب الفكر ويدعو الى التأمل والتفكير، ولكنه لا يثير العاطفة او يحرك الشعور . وقد ساءني حرص العقـــاد على نشر كل شعره حتى الضعيف منه وحتى البيتين والثلاثة . فقد تخطر لأحدنا خواطر يمكنه ان يضمنها بيتين من الشعر ، ولكنـه يأنف من ذلك ويابى ان يكون نفسه قليل الامتداد. والحق ان العقاد أراد ان يكون شاعراً، فكانه نظم بالارادة لا بالحافز النفسي الذي يدفعـه الى قول الشعر ، فالشعر الحق يجب ان ينبع من النفس كما يتفجر الماء من المنبـع رغم ارادة الصخور المعترضة»..

هذا رأي أديب لا ينكر على العقاد فضله على الادب العربي ، ويعترف له بمكانته ككاتب كبير ، ولكنه لا يذهب مع الحمـــاسة حتى يتخلى عن مقاييسه النقدية في تقييم الشعر، وكانما أدرك الشابي صواب هذه النظرة، فانصرف عن مناقشة هـــذا الرأي في رده على رسالة الحليوي ، ولجأ الى مناقشة موضوع جانبي منها يتعلق بنظم البيت او البيتين. فلننظر كيف يعلق على هذه الرسالة ، فان لذلك أهمية لا يمكن اغفالها :

« اذا كان لي ان أنكر عليك هذا الرأي ، فهو زرايتك على العقـــاد ونظمه البيت والبيتين ، وقولك أن النفس تانف من ذلك وتابى ان يكون نفَسها غير ممتد .

(*) من رسائل الشابي .

« فالعبرة يا صديقي عندي، انما هي بنوع الشعر وعلوّ عنصره وكرم معدنه، لا بكميته وكثرته. وكم من مطولات ممدودة النفَس لا يعثر فيها المرء على ما يسكر القلب او يغذي الفكر؛ ثم ألا ترى معي أن قولك أن النفس تأبى ألا تكون ممتدة النفَس هو ضرب من تحكم الارادة الذي تنعاه على العقاد في شعره؟ أما انا فلا أفهم من الشعر الا أنه فيض الحياة في أيقظ ساعاتها، وأحفلها بنوازع الفكر والشعور. وكما أن السحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات، كذلك نفس الشاعر »(*).

ونلتقي مرة اخرى اعجاب الشابي بالعقـــاد في هذه الفقرة الهامة، وهي وحدها تكفي للدلالة على التلمذة والتأثر والانفتاح على الآراء، التي كان يكتبها وينادي بها:

« اطلعت على كتاب « ساعات بين الكتب »، وتمليت بما فيه من صور الفن ومثل الحيـــاة مما لا ينتج الا عن ذهن جبار ولود وعبقرية نادرة خارقة. اما لغة الكتاب واسلوبه، فهو الاسلوب القيم الجميل الذي لم يكتب العقاد فيما سلف خيراً منه، على رأيي طبعاً ».

وقد كتب العقاد فيما كتب عن شكسبير كتابة، لو علم شكسبير أنها ستكتب عنه لمجّد نفسه الف مرة. كتب عنه كتابة لا أحسب أنها كتبت عن بشري من قبل. فقد صوّر العقـاد فيها شكسبير بصورة إلهية عليها جلال الألوهية في جدّها ولعبها، في حزنها وفرحها، في بؤسها وسعادتها.

(*) من رسائل الشابي.

وماذا يمكنني ان أقول؟.. ان العقاد جعل من شكسبير إلهاً صغيراً بشرياً، يخلق في دنيـاه الصغيرة صوراً حيـة كاملة من صور الانسانية المتباينة ، صوراً ملأى بمعاني الحيـــاة اللاعبة العابثة والجادَّة العابسة ، والشاعرة المفكرة والمجنونة التائهة »(*) .

ومن المهم ان نشير هنا الى هذا الكتاب ، فقد ضمَّ بضعة فصول نقدية هامة ، لعل أهمها وأكثرها ارتباطاً بالنـاحية الشعرية ، تلك الفصول او المقـــالات التي كتبها حول الشعر في مصر ، وتضمنت كثيراً من آرائه الاساسية في تقييم الشعر وفق النظرة الجديدة التي كان ينـادي بها هو ومدرسته ، وهي من أعمق الدراسات التي كتبها الاستاذ العقاد ، وكان لها تأثير بالغ في توجيه النقد الحديث والشعر الحديث. ثم كلمات عن الصحيح والزائف من الشعر ، والنثر والشعر ، وأبيات من الشعر ، وكلمة عن الاستاذ الزهـاوي ، ودراسات عن شكسبير وتوماس هـاردي ، والشعر العربي والشعر الانجليزي ، ومع المتنبي والحقائق الشعرية .

ولست أشك في أن كثيراً من هـذه الآراء التي تناولها العقاد في هـذا الكتاب ، قد دخلت كعوامل أساسية في تجربة الشابي الشعرية ، وكان لها أثر كبير في نفسه تدل عليه حماسته التي تعبر عنها هـــذه المقتطفات من رسائله. ولا يمكن لباحث ان يغفل هذا الجانب من تكوين الشابي الثقافي، فقد كان العقاد أحد الأعلام الذين أخذ عنهم واستفاد منهم ، وحمل لهم في نفسه كل تقدير واحترام .

(*) من رسائل الشابي .

شارك الاستاذ نعيمة في صياغة العوامل التي قامت عليها تجربة الشابي. وقد كان الشابي على صلة قوية بالاتجاهات الادبية التي تمثلت في مدرسة المهجر وجماعة الرابطة القلمية . ولقد كان الناقد الموجّه والمعبّر عن وجهة نظرها وقيمها الجديدة التي تدعو اليها، هو الاستاذ نعيمة، وخاصة في كتابه « الغربال » . ولقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في توجيه الحركة الادبية ، وتناولته أقلام كثيرة بالدراسة والتعليق ، ورحب به دعاة التجديد في الشرق ، إذ وجدوا فيه سنداً لدعوتهم ورفيقاً في رحلتهم الجديدة . وما من شك في أن الشابي قد قرأ شيئاً من هذه الآراء ، كما قرأ كثيراً من النماذج الشعرية الجديدة التي قدمتها هذه المدرسة ، ووجد فيها ما كان يبحث عنه ، من تعبير عن الذات ووضوح الشخصية والبعد عن الصناعة اللفظية ، الى التعبير عن النفس الانسانية وتجربتها في الحياة . ولقد خاطب وجدانه هذا الادب ، وتمثل تجربته وسار على دربه . ولعل أبرز من أثّر في اتجاهه من أدباء المهجر : نعيمة وجبران .

أما نعيمة فاننا نكتشف أثره في تحديد الشابي لمفهوم الشعر ، وهو تحديد يقترب او يستمد كثيراً من مقوماته من التحديد الذي وضعه نعيمة في كتابه « الغربال » :

« ان جهلنا معنى الشعر الحقيقي ومنزلته في عالم الادب ، قد أوصلنا الى ما نحن فيه الآن من وفرة النظامين وقلة الشعراء ، وغنانا بالقصائد وفقرنا بالشعر . ان الذين حاولوا ان يعرّفوا الشعر بعبارة او اكثر لعدد

كبير ، لكن لم يكن بينهم من اهتـدى الى تعريف يشمل الشعر من كل وجوهه ، لأن الشعر غير محدود .

« ولو ألقينا نظرة سطحية على هـذه التعاريف لوجدناها ، مع كل ما فيها من الاختلاف الظاهر في التعبير ، تدور حول نقطتين جوهريتين : قسم منها ينظر الى الشعر من جهة تركيبه وتنسيق عبـــاراته وأوزانه وقوافيه ، والآخر يرى في الشعر قوة حيوية ، قوة مبدعة ، قوة مندفعة دائماً الى الأمام . والشعر في الحقيقة، ليس الاول وحده ، ولا الثاني فقط ، بل هو كلاهما . الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على البـاطل . هو ترنيمة البلبل ونوح الورق وخرير الجدول وقصف الرعد. هو ابتسامة الطفل ودمعـة الثكلى وتورّد وجنـة العذراء وتجعد وجه الشيخ . هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر لذة التمتع بالحياة ، والرعشة أمام وجه الموت . هو الحب والبغض والنعيم والشقاء . هو صرخة البـائس وقهقهة السكران ولهفة الضعيف وعجب القوي. الشعر ميل جارف وحنين دائم الى ارض لم نعرفها ولن نعرفها . هو انجذاب أبدي لمعانقة الكون باسره، والاتحاد مع كل مـــا في الكون من جماد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية . وبالاجمال ، فالشعر هو الحيـاة باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، مولولة ومهللة ، وشاكية وباسمة ، ومقبلة ومدبرة » ..

واني لأحس أثراً من قصيدة النهر المتجمـد لميخائيل نعيمة ، ينساب

في هـــذا النغم الذي تميزت به قصيدة الشابي « جدول الحب بين الأمس واليوم » وقصيدة « قلب الام » :

يا نهر ، هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟
أم قد هرمت وخار عزمك ، فانثنيت عن المسير ؟
بالامس كنت مرنماً ، بين الحـــدائق والزهور
تتلو على الدنيا ومـا فيها أحاديث الدهور
بالامس كنت تسير لا تخشى الموانع في الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكينـة اللحد العميق
بالامس كنت اذا أتيتك باكيـــاً ، سليتني
واليوم صرت اذا أتيتك ضاحكاً ، أبكيتني
بالامس كنت اذا سمعت تنهُّـدي وتوجُّـعي
تبكي ، وهـا أبكي أنا وحدي ، ولا تبكي معي
مـا هذه الأكفان ؟ أم هذي قيود من جليد
قد كبّـلتك وذلّـلتك بهـــا يد البرد الشديد
ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمـــال
يجثو كئيباً كلما مرّت بـه ريح الشمال
والحور ينـــدب فوق رأسك ناثراً أغصانه
لا يسرح الحسون فيه مردداً ألحـــانه
تاتيـه أسراب من الغربان تنعق في الفضا
فكأنها ترثي شباباً من حيـــاتك قد مضى

وكأنها بنعيبها عنـــد الصباح وفي المسا
جوق يشيّـع جسمك الصافي الى دار البقـــا
لكن سينصرف الشتا ، وتعود أيام الربيـع
فتفكُّ جسمك من عقـــال مكّـنته يد الصقيـع
وتكرُّ موجتك النقية حرَّةً نحو البحار
حبلى بأسرار الدجى ، ثملى بأنوار النهـــار
وتعود تبسم ، إذ يلاطف وجهك الصافي النسيم
وتعود تسبح في ميـــاهك أنجم الليل البهيم
والبـدر يبسط من سماه عليك ستراً من لجين
والشمس تستر بالأزاهر منكبيك العـــاريين
والحور ينسى مـا اعتراه من المصائب والمحَن
ويعود يشمخ أنفـــه ، ويميس مخضرّ الفنن
وتعود للصفصاف ، بعـد الشيب ، أيام الشباب
فيغرّد الحسون فوق غصونه ، بدل الغراب
قد كان لي ، يا نهر ، قلب ضاحك مثل المروج
حرٌّ كقلبك ، فيه أهواء وآمـــال تموج
قد كان يضحي غير مـا يمسي ، ولا يشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجهك فيـه أمواج الأمل
فتساوت الأيام فيه ، صباحهـــا ومساؤها
وتوازنت فيه الحيـــاة ، نعيمها وشقـاؤها

سيان فيه غدا الربيع مع الخريف ، او الشتاء
سيان نوح البائسين ، وضحك أبنـاء الصفاء
نبذته ضوضاء الحيـاة ، فمال عنها وانفرد
وغدا جماداً ، لا يحنُّ ولا يميـل الى أحد
وغدا غريباً بين قوم ، كان قبلاً منهمُ
وغدوت بين النـاس لغزاً فيه لغز مبهمُ
يا نهر ، ذا قلبي ، أراه كما أراك ، مكبّلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو .. لا

ويقول الشابي من قصيدة « جدول الحب بين الأمس واليوم » :

بالامس قد كانت حيـاتي كالسماء الباسمه
واليوم قد أمست كأعمـاق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
يجري به ماء المحبـة طاهراً ، يتسلسل
تسعى به الأمواج ، باسمة كأحلام الصبا
بيضاء ناصعة ضحوكاً ، مثل أزهار الربى
ميّـاسة كعرائس الفردوس بين حقوله
تتـلو أناشيد المنى ، في مدّه وقفوله
هو جدول الحب الذي قـد كان في قلبي الخضل
بمراشف الاحـلام منطلقاً ، يسير على مهل
يتـلو على سمعي أغاريد الحيـاة الطاهره

ويثير في قلبي أناشيد الخلود الساحره
تقف العذارى الخالدات ، عرائس الشعر البديع
في ضفتيه ، مردّدات نغمة الحلم الوديع
يلمسن من قيثارة الاحلام ، أوتار الغزل
فتفيض ألحان الصبابة عذبة مثل الأمل
وتطير بالبسمات والأنغام ، أجنحة الصدى
في ذلك الأفق الجميل ، وذلك النفح الرضا
وهناك حيث تعانق البسمات أنغام الغزل
يتمايل الحلم الجميل كبسمة القلب الثمل

أما أثر جبران في تجربة الشابي الشعرية ، فهو واضح كل الوضوح ، ولن نحتاج الى كبير عناء في اكتشافه. ولقد انصرف الشابي بقوة الى أدب جبران ، الذي عكف عليه يقرأه ويستعيد قراءته في إكبار وإعجاب ، بما كان يحفل به من صور خيالية وعاطفة رقيقة. لقد أرضى جبران اكثر من جانب في نفس الشابي ، فقد كان يمثل لديه نموذج الكاتب الرومانسي ونموذج المتمرد الرومانسي ، وان كثيراً من آراء جبران تطل علينا من خلال شعر الشابي . وليس من الصواب ان يقال : « ان جبران ليس شاعراً حتى يتأثر به الشابي » . هذا خطأ في الفهم والتقدير ، فكأنما التأثير الفكري انما يتم بين الشعراء ، فلا يؤثر الشاعر إلا في شاعر ، ولا يؤثر الناثر إلا في ناثر . وهذا الرأي ، على ما فيه من مغالطة واضحة ، يتجاهل

وحدة العمل الادبي التي تجعل مختلف النشاطات الادبيـة لوناً من التعبير عن الذات .

وقد تحدثنا خلال الكتاب، عن هذا التأثير الذيشمل الفكرة والمعالجة والاسلوب ، ونقف اليوم امام دليل آخر على هذا التأثير الذي تحمله الينا هـذه الكلمات التي رثى بها الشابي جبران ، وهي واضحة في الدلالة على الحب والاعجاب الذيكان ينطوي عليه الشابي نحو جبران ، وتقديره له، وتلمذته عليه تلمذة طويلة وعميقة :

« فكّـر جبران فكانت أفكاره عميقة كالموت ، جميلة كالحياة . فكر كفيلسوف وتكلم كشاعر، فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة ، وكان له فن غريب يتعانق في ظله الخيال والجموح والحقيقة السافرة .

« وكان جبران ثورة في الادب العربي ، ولكنها ثورة حيـة ، جانب البناء فيها اكثر من جانب الهدم والتخريب . ثورة أيقظت النـاس من سبات الدهور ، وأرتهم آفاقاً كانت مجهولة ، وأسمعتهم هزيم الحيـــاة ، وعلمتهم أن روح الشاعر كنز لا يفنى وثورة لا تبيد ، وان في هـذا العالم شيئاً آخر غير الامس البعيد.

« ويمتاز أدب جبران بميزتين همـا ، في نظري ، دعامتا مجده الذي لا يزول . الميزة الاولى : الجدة والطرافة في اسلوبه ومعـانيه وفي روحه ، فانك لتقرأ أدبه فاذا به اسلوب موسيقي متجاوبالنبرات،ومعان خيالية رائعة ، وروح متأججة ترفرف بين السطور . الميزة الثانية : الحياة التي لا بد ان تتحرك في صدرك حين تقرأه ، او فكراً او خيالاً ، لا بل انهـا

تكرهك على ان تفكر او تشعر او تتخيل ؛ ومن لا يحركه أدب جبران ولا يثير شعوره ، انما هو روح مقفرة وقلب مهدوم .

« وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية انها مخطئة احياناً ، ولكن ذلك لا يحطّ من قيمة جبران ، فما هي إلا هفوة تغتفرها له تلك الثورة المعنوية الخالدة التي خلفها جبران للعربية. وستمر الدهور وتتعاقب الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء، ولكن لا يستطيعون ان ينسوا هاته الحقيقة .

« لقد كان جبران عاطفة مشبوبة ، وخيالاً جامعاً ، وفكراً قوياً يجوب أعماق الحياة .

« وسيقول الصديق لصديقه ، وهو يحادثه في الليلة القمراء ، تحت ظلال النخيل او على شاطىء اللجة الذاوية : حقاً لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال »(*) .

أما مدرسة أبوللو ، او جماعة أبوللو ، فقد كان الشابي من أعلامها ، ولم يكن من تلاميذها . التقى بها بعد ان تكوّنت له شخصية متميزة متفردة ، وفتح له أدبه الرفيع أبوابها دون وسيط او معين ، فلم تتردد المجلة في ضمه الى اسرتها ، بعدما اكتشفت من قيمته الادبية ما يزيد في تدعيم المجلة . ولقد كانت المجلة تسعى الى ان تمثل فيها جميع الفئات من البلدان العربية .

(*) توفيق بكار — (مشاركة في دراسة الشابي) — حولية الجامعة التونسية ، العدد الثاني سنة ١٩٦٥ .

نعم ان أبوللو قد ساهمت الى حد بعيد في ذيوع اسم الشابي وانتشار شهرته في الشرق ، وعرّفت بأدبه . وقد كان الشابي نفسه يتطلع الى التعريف بأدبه . وكان يحمل الطموح الى ان يكون لبلاده تونس أدب يذكر الى جانب الآداب التي تنتجها البلدان العربية الاخرى ، وكان لا يجد فرصة يفضي فيها بمثل هذا الرأي إلا اغتنمها. فقد كان يحزنه ألا يعرف الشرق شيئاً من أدب بلاده ، كما كان يحزنه ألا يندفع شباب الأدباء في بلاده الى المشاركة الواسعة في الصحف الادبية في الشرق .

نعم ان أبوللو قد عرّفت بالشابي ، ونقلت شعره الى مجموعة أوسع من المحيط الذي كان يعيش فيه . ولكن التقاء الشابي بأبوللو كان لقاء الرفيق الذي يسير على نفس الدرب ، فقد اتصل بها وهو شاعر ، تكاملت له أداته الشعرية. ولم تجد المجلة ، امام الروح التي يحملها ادبه وشعره ، إلا ان تفتح له صفحاتها ، تزيد من قيمتها ، وترفع من شأنها ، وتدعم المذهب الذي تحمله وتبشر به .

وقد كان الشابي يدرك أخطاء مجلة أبوللو ويشعر بما كان يبدو عليها من ضعف ، ولم يكن راضياً كل الرضى عما ينشر بها ، وفي ذلك دلالة على ارتفاع مستواه عن مستوى التلميذ الذي تلهيه فرحة الظهور في صحيفة مشهورة عن الانتباه لأخطائها المذكورة :

« أرى أن بينها وبين السمو خطوتين : الاولى ان يقسو صاحبها في انتخاب ما يرد عليه ، فلا ينشر الا ما سَمَت روحه وشَرُف اسلوبه ، حتى اصبح جديراً ولو أقل من كل الجدارة ، ان يصير فناً . فاني أراه في

كثير من الاحيــان ، ينشر بعض الأشعار السخيفة المبتذلة في روحها واسلوبها، بالرغم من أنه كثيراً ما يصرّح ويصرّح له بانه يجب ان يكون قاسياً لا يعرف المجاملة او الهوادة في سبيل الحق والفن ، ولكنها خطوة أعتقد انه سيخطوها في مقتبل الايام . أمـا الخطوة الثانية فهي مشاركة عظماء مصر في تحريرها ، كالعقـاد والمازني وطه حسين ومن لفّ لفهم ، فان الطبقة التي تحررها هاته الايام ، خصوصاً في الناحية النثرية ، ليست من القوة في شيء » .

أما موقف الشابي من شعر الدكتور ابي شادي فقد أوضحه في هذه الكلمة ، وهي واضحة في الدلالة على أن العلاقة القائمة بينهما لم تكن علاقة تلمذة . ومن المعروف أن الدكتور أبا شادي قد طلب من الشابي ان يقدم له ديوانه « الينبوع » ، وما كان ليفعل ذلك لو لم يكن على يقين من مكانة الشابي ومن كلمته التي تخدم الديوان وصاحبه .

وكان الشابي مدركاً للعيوب الفنية في شعر ابي شادي ، ولكنه لم يملك الا ان يجامل ، وأوجز رأيه في رسالة بعث بها الى صديقه الحليوي ، يقول فيها :

« الحقيقة انني كنت لا استطيع ان أتم قصيداً لأبي شادي ، ولكنني رضت نفسي على ان أتابعه حتى ألفته فتبين لي ان الرجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانية صوفية في نظرته الى الوجود. ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه شيئان :

١ ــ انه متعجل مكثار ، لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي .

٢ ــ ان صوره الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره بحيث ترغمك على تذوّقها واستمتاعها وذكراها ، بل انها لتبدو ملتاتة غائمة سريعة كل السرعة كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية . وهذا السبب الذي ينأى بالناس عن تذوّق شعره وإدراك ما فيه من صور شعرية واحساسات عميقة ، تدل على نفس حية واعية، ولذلك فشعره يبدو فاتراً في كثير من الاحيان ، لا يسيطر عليك ويرغمك على ان تتبعه مسحوراً دهشاً. وما أشبه شعره في نظري، بتلك المرأة الجميلة التي يعجبك جمالها، ولكن لا تستفزك أنوثتها القاهرة وسحرها الغالب ؛ ولعلك لو رضت نفسك على تلاوة شعره لأدركت منه ما أدركت. ذلك مجمل رأيي في الرجل وانك لتدرك بالبداهة انه لا يمكنني ان أقول هذا القول وبهاته الطريقة في مقدمة تكتب لديوانه » .

ولكن من الحق ان نقول أن البيئة الادبية في مصر ، وما كان يدور فيها من مناقشات ، وما يرتفع فيها من دعوات فكرية قد ملأت خاطره ووجدانه ، وأنه كان يتابع الحركة الادبية هناك متابعة واعية عميقة ، ويصدر أحكامه عليها فتنم عن تقييم سليم وادراك كامل لمحتواها .

فالحياة الفكرية التي كانت سائدة في مصر قد أثرت في فكر الشابي وخياله ، ولا نكران في انه قد تتلمذ عليها واستفاد منها شأن أغلب الناشئين في البلدان العربية حينذاك. فقد كان لواء الزعامة الادبية معقوداً

لمصر ، وكانت ترتفع في أفقها أسماء شوقي وحافظ ومطران والعقاد وطه حسين والمازني والزيات وشعراء المدرسة الحديثة .

كان الشابي يتابع هذه الحركة ، فهو يحكم على الصحف والمجلات التي تمثلها وتنقل اليه تياراتها ، فعنده « ان الرسالة من ألزم اللوازم للأديب الذي يريد ان يتصل معنوياً بعظماء مصر في الوقت الحاضر » . ويقول عن جريدة السياسة الاسبوعية وجماعتها : « ان كبرياء مصر وفرعونيتها انما تتمثل في جريدة السياسة الاسبوعية وجماعتها اكثر من كل صحيفة وفريق » . ويفضل النشر في مجلة أبوللو « لأنها مجلة خلقت لخدمة الادب العربي ، بقطع النظر عن الفروق الوطنية والسياسية ، لأن جماعتها أقل فرعونيــة وأدمث أخلاقاً من جماعة السياسة الذين على رأسهم هيكل اول داع الى الفرعونية ومشيديها » .. وهو يشير بذلك الى الدعوة التي تحمس لهـا الدكتور هيكل ودعا اليها ، والتي تقوم على استيحاء التاريخ القومي المصري وتستند الى أنه « بين مصر الحديثة ومصر القـديمة اتصال نفسي وثيق ينساه كثيرون، فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم وفي العقائد الدينية وفي اللغة ، وغير ذلك من مقومات حياة الأمم ، قد فصل بين هذه الامة الحاضرة وبين الامة المصرية القديمة فصلاً حاسماً جعلنا الى العرب او الى الرومان أقرب منا الى أولئك الذين عمروا وادي النيــل في ألوف السنين التي سبقت المسيحية » . وقـد أثبت ذلك في جملة مقالات ضمنها كتابه « ثورة الادب » .

ومن الواضح ان اتجـاه الشابي الى الشرق يحمل دلالة على أن الواقع

الادبي في بلاده لم يشبع روحـه ، وان طموحه كان موجهاً الى المشاركة في الحركة الادبية ، وكان يشعر ان قيمته الادبية انما تتاكد بما يحصل عليه من شهرة وانتشار في الشرق . وقد عمل على ان ينشر شعره في كبريات الصحف المصرية ، وشجـع غيره من الأدباء التونسيين على ان يفعلوا ذلك حتى ينشىء سمعة ادبية لتونس ، التي لم يكن راضياً على واقع الادب فيها.

ولا نستطيع ان ننسى، في تحديد معالم التجربة الشعرية عند الشابي، هذا الطموح العارم القوي الذي كان يحمله من اجل ان يكون لتونس أدب يعبر عن شخصيتها ، ويحمل مشاركتها الى العـالم العربي الذي كان يجهل الكثير من انتاج هذا الجيل الذي يمثله .

« ان تونس ملعونة ولن ينهض الادب الحي فيها بعد اليوم .. أكذا قضى القدر العـــاتب الغشوم ان لا ترفع تونس رأسها يوماً من حضيض الموت ؟ أقُدِّر لهاته الجيف المنتنـة ان تتكلم وحدها في الفضاء الجميل ؟! ان هذا لا يطاق » .

« وأصارحك في موقف خاسم، في تكوين الادب التونسي الحي الجدير بالخلود ، وفي تحطيم هذه الاصنام الخشبية التي تحتل مكاناً من الادب يجب ان يحتله الأحيـــاء الذين يعرفون كيف يعلمونه في محبـة الحق والقوة والجمال » .

ولا نستطيـع ان ننسى أثر الصحبة في تكوين الشابي الثقافي وصياغة تجربته الشعرية ، وخاصة صداقته مع الاستاذ الحليوي ، اذ يبدو لنـا انها كانت ذات أثر واضح نلمسه في :

١ ــ تشجيع الحليوي المستمر للشابي ، ذلك التشجيع الذي ينبثق من ايمانه بأنه ازاء موهبة شعرية ينبغي ان تُرعى و تُحاط بالإكبار .

٢ ــ اللقاء الفكري على مفهوم واحد للأدب .

٣ ــ الملكة النقدية عند الحليوي كان لها أثر بليغ في توجيه الشابي، فقد كان الحس النقدي عند الحليوي عميقاً، وبعيداً عن الانفعالية والعاطفية. ويتضح ذلك من الحوار الذي جرى بينهما حول شعر العقاد : « ان العقاد يفكر في شعره ولا يكتب الشعر في حالات شعور ثائر ، بل هو يهتدي الى الفكرة او يوحيها له كتاب او قصيدة فيريد ان ينظمها شعراً وتتم له ارادته . واذا قرأت انا ذلك الشعر أعجبني موضوعه ، وتمنيت لو تناوله شاعر عاطفي حتى يحملنا على أجنحة الخيال او يهز مشاعرنا هزاً » .

٤ ــ كان الحليوي على صلة مباشرة بالثقافة الفرنسية وبأدباء الرومانسية ، وكان يحدث الشابي بخلاصة قراءاته في هذا المجال ، فهو يكتب عن دى فيني ، ويقرأ بيرون ويدرس لامارتين . وقد كان هذا كله مما يتفق مع الجو الفكري السائد حينذاك ، ويشبع ميلاً نفسياً لديه ولدى صديقه . وعلى الجملة ، فاننا نقرّ هذه العبارة التي أطلقها الحليوي، محدداً بها العلاقة بينه وبين الشابي :« انت ـ يعني نفسه ـ في هذه الرسائل تشبه سانت بيف وصديقك يشبه لامارتين » ..

وكان الشابي يحس بالنقص لعدم إلمامه بلغة اجنبية ، وقد ظن الكثيرون الذين اطلعوا على شعره ، انه متأثر تأثراً مباشراً بالثقافة الفرنسية ، وقد وقع ابو شادي في هذا الوهم ، فطلب اليه ان يمده ببعض

الابحـاث والدراسات ، وعلى الخصوص في الادب الفرنسي . « فصاحبنا يعتقد أني أعرف الادب الاجنبي ، ولذلك يطلب مني هذا الطلب . وانه ليحز في قلبي يا صديقي ، ويدمي نفسي ان أعلم انني عـاجز .. عاجز .. عاجز . انني لا استطيع ان أطير في عالم الادب إلا بجناح واحد منتوف ».
ولعل هذا الشعور بالعجز هو الذي يفسر لنا إقبـــاله الشديد على الادب الغربي المترجم ، واحتذاءه والتأثر به على نحو لا يتحقق للذين يتصلون به اتصالاً مباشراً . وقد مكنه هـذا الشوق الذي يحسه نحو هـذه الآداب الاجنبية ، ان يتلقـاها بعمق ، ويتأثر بهـا في قوة لا نراها تتحقق للذين يقرأونها في لغاتها الاصلية مباشرة ، حتى يعوض على نفسه ما فاته منها ، وحتى لا يكون متخلفاً عن السير في موكب التجديد الذي يطمح اليـه .
كانت أسماء أدباء الرومانطيقية الفرنسية والانجليزية هي التي تسيطر على الحياة الفكرية . كان الحديث حول بيرون وشللي وودزورث ولامارتين ودى موسيه ودى فيني . وكانت هذه القصائد التي تُترَجم ، والدراسات التي تُكتب ، تصوّر هؤلاء الأدباء على أنهم المثل الأعلى والصورة الادبيـة التي يجب ان تُحتذى . وقد تأثر الشابي كاغلب شباب الجيـــل ، بهذه القراءات الرومانسية التي أشبعت ما في نفسه من شوق وطموح الى التعبير عن الذات . فقرأ « رفائيل » و « آلام فرثر » من ترجمة الزيات ، وقرأ « ماجدولين » و « بول فرجيني » من ترجمـة المنفلوطي ، وقرأ كثيراً من الاشعار المترجمة والدراسات النقدية التي تتعرض لهؤلاء الأدباء بالنقد والتقييم . ولقد استفاد حتماً من هـذه القراءات ودخلت ضمن العوامل الفعالة في تجربته الشعرية .

هذه هي العوامل التي اشتركت في تكوين تجربة الشابي وتحديد رأيه من قضايا الشعر في عصره وفي بلاده . على أن هذه العوامل كلهـا لا تنفي مـا تميز به الشابي من طابـع ذاتي قوي وأصالة واضحة ، برزت مستقلة عن كل تأثير ، وبلغ من قوتها وأصالتها وعمقها أن كانت مؤثرة فيمن جاء بعده من الشعراء، وسوف يظل الشابي روحاً خالداً يملأ الوجدان العربي بنغمات حية لا تزول ، ومرجع هذه القوة والأصالة شعوره بذاته، ويقظة احساسه : « اذا تيقظ الاحساس في قلب الشاعر الفنـان ، بتعبير أشمل ، كان له بالرغم عنه ، استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة من المستحيل ان تنـدمج في سواها ، وان لا تشق لنفسها سبيلاً بكراً للمجـد والحياة،وكانت له كرامة تترفع عن ان تذوب في غيرها او تنحط الى درك التقليد . وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحيـــاة ، وطائراً سماوياً يتغنى بأفكار البشر وأحلامهم » ..

رَوائِع الشَّابي

صلوات في هيكل الحب

عذبة انت كالطفولة ، كالاحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليـد !
يا لهـا من طهارة ، تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد !
يا لهـا رقة ، يكاد يرفّ الورد منها في الصخرة الجلمود !
أيُّ شيء تراك ؟ هل انت فينيس تهادت بين الورى من جديد !
لتعيد الشباب والفرح المعسول للعـــالم التعيس العميد :
أم ملاك الفردوس جاء الى الارض ليحيي روح السلام العهيد !
انت ما انت ؟ انت رسم جميل عبقري من فن هـذا الوجود !
فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقـــدس معبود !
انت ما انت ؟ انت فجر من السحر تجلّـى لقلبي المعمود !
فأراه الحياة في مونق السحر ، وجلى له خفـــايا الخلود !
انت روح الربيع تختال في الدنيا ، فتهتز رائعات الورود !
وتهبُّ الحياة سكرى من العطر ، ويدوي الوجود بالتغريد !
كلما أبصرتك عينـــاي تمشين بخطو موقع ، كالنشيد !

خفق القلب للحياة ، ورفّ الزهر في حقل عمري المجرود !
وانتشت روحي الكئيبة بالحب ، وغنّت كالبلبل الغرّيد !
انت تحيين في فؤادي ما قد مات في أمسي السعيد الفقيد !
وتشيدين في خرائب روحي ما تلاشى في عهدي المحدود !
من طموح الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد !
وتبثين رقة الشوق والاحلام والشجو والهوى ، في نشيدي !
بعد ان عانقت كآبة أيامي فؤادي ، وألجمت تغريدي !
انت انشودة الأناشيد ، غنّاك إله الغناء ، رب القصيد !
فيك شب الشباب وشّحه السحر ، وشدو الهوى وعطر الورود !
وتراءى الجمال يرقص رقصاً قدسياً على أغاني الوجود !
وتهاوت في أفق روحك أوزان الأغاني ، ورقّة التغريد !
فتمايلت في الحياة كلحن عبقري الخيال ، حلو النشيد !
خطوات سكرانة بالأناشيد ، وصوت كرجع ناي بعيد !
وقوام يكاد يهتف بالألحان في كل وقفة وقعود !
كل شيء موقّع فيك ، حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود !
انت.. انت الحياة في قدسها السامي، وفي سحرها الشجيّ الفريد!
انت.. انت الحياة في رقة الفجر ، وفي رونق الربيع الوليد !
انت.. انت الحياة كل أوان ، في رواء من الشباب جديد !
انت.. انت الحياة فيك ، وفي عينيك آيات سحرها الممدود !
انت دنيا من الأناشيد والأحلام ، والسحر ، والخيال المريد !

انت فوق الخيال والشعر والفن، وفوق النهى، وفوق الحدود !
انت قدسي ومعبـدي وصباحي ، وربيعي ونشوتي وخلودي !
يا ابنة النور ، انني انا وحدي من رأى فيك روعــة المعبود !
فدعيني أعيش في ظلك العذب ، وفي قرب حسنك المعبود !
عيشة للجمال والفن والالهام ، والطهر والسنى ، والسجود !
عيشة الناسك البتول ، يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد !
وامنحيني السلام والفرح الروحي ، يا ضوء فجري المنشود !
وارحميني ، فقد تهدّمت في كون من الياس والظلام مشيد !
انقذيني من الأسى ، فلقد أمسيت لا استطيـع حمل وجودي !
في شعاب الزمان والموت أمشي ، تحت عبء الحياة جم القيود !
وأماشي الورى ونفسي كالقبر ، وقلبي كالعـالم المهدود !
ظلمة ما لها ختــام ، وهول شائع في سكونها الممدود !
واذا ما استخفني عبث الناس ، تبسمت في أسى وجمود !
بسمة مُرَّة ، كأني أستل من الشوك ذابلات الورود !
وانفخي في مشاعري مرح الدنيا ، وشدّي من عزمي المجهود !
وابعثي في دمي الحرارة ، علّي أتغنى مع المنى من جديد !
وأبثّ الوجود أنغــام قلب بلبلي ، مكبل بالحـديد !
فالصباح الجـديد ينعش بالدفء حيــاة المحطم المكدود !
انقذيني فقد سئمت ظلامي ، انقذيني فقد مللت ركودي !

* * *

آه يا زهرتي الجميلة ، لو تدرين ما جدَّ في فؤادي الوحيد !
في فؤادي الغريب تخلق أكوان من السحر ذات حسن فريد !
وشموس وضّاءة ونجوم ، تنثر النور في فضـــاء مديد !
وربيع كأنه حــــلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد !
ورياض لا تعرف الحلك الداجي ، ولا ثورة الخريف العتيد !
وطيور سحرية تتنـــاغى ، باناشيد حــــلوة التغريد !
وقصور كانها الشفق المخضوب ، او طلعة الصباح الوليد !
وغيوم رقيقـة تتهادى ، كأباديد من نثـــار الورود !
وحياة شعرية هي عندي ، صورة من حياة أهل الخلود !
كل هـــذا يشيده سحر عينيك ، وإلهام حسنك المعبود !
وحرام عليك ان تهدمي ما شاده الحسن في الفؤاد العميد !
وحرام عليك ان تسحقي آمال نفس تصبو لعيش رغيد !
منك ترجو سعادة لم تجدها في حياة الورى وسحر الوجود !
فالإله العظيم لا يرجم العبد ، اذا كان في جلال السجود !

النبي المجهول

أيها الشعب ! ليتني كنت حطاباً فأهوي على الجـذوع بفأسي !
ليتني كنت كالسيول ، اذا سالت تهدُّ القبور : رمساً برمس !
ليتني كنت كالرياح ، فأطوي كلّ ما يخنق الزهور بنحسي !
ليتني كنت كالشتاء ، أغشّي كلّ ما أذبل الخريف بقرسي !
ليت لي قوة العواصف ، يا شعبي فأُلقي اليـك ثورة نفسي !
ليت لي قوة الأعاصير ، إن ضجَّتْ فأدعوك للحيـاة بنبسي !
ليت لي قوة الأعاصير ..! لكنْ انت حيٌّ ، يقضي الحياة برمس..!
انت روحٌ غبيَّة ، تكره النور ، وتقضي الدهور في ليل مَلس..
انت لا تدرك الحقائق، إن طافت حواليك دون مسٍّ وجسٍّ...
في صباح الحياة ضمَّختُ أكوابي وأترعتها بخمرة نفسي...
ثم قدَّمتُها اليكَ ، فأهرقتَ رحيقي، ودُستَ يا شعب كأسي!
فتألمت .. ثم أسكتُّ آلامي ، وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي باقةً لم يمسَّها أيُّ إنسي..

ثم قدَّمتهـــا اليك ، فمزّقتَ ورودي ، ودُستَـها أيَّ دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الجبال توّجتَ رأسي

* * *

انني ذاهب الى الغاب ، يا شعبي لأقضي الحياة ، وحدي ، بياس
انني ذاهب الى الغـاب ، علّـي في صميم الغـابات أدفن بؤسي
ثم أنساك ما استطعت ، فما انت باهـــلٍ لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي ، وأفضي لهـــا بأشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة ، وتدري أنَّ مجـدَ النفوس يقظةُ حسٍّ
ثم أقضي هنـاك ، في ظلمة الليل ، وألقي الى الوجود بياسي
ثم تحت الصنوبر ، الناضر، الحلو ، تخطُّ السيول حفرة رمسي
وتظلُّ الطيور تلغو على قبري ويشدو النسيم فوقي بهمس
وتظل الفصول تمشي حواليّ كما كنَّ في غضـــارة أمسي

* * *

أيها الشعب ! انت طفل صغير ، لاعبٌ بالتراب والليل مُغْـس . !
انت في الكون قوة ، لم تسُسْـها فكرةٌ ، عبقريةٌ ، ذات بأس
انت في الكون قوة ، كبَّلتْـها ظلمات العصور، من أمس أمس . .
والشقيُّ الشقي من كان مثلي في حساسيتي ، ورقّة نفسي

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ الناس رحيقَ الحيـــاة في خير كاس
فأشاحوا عنها ، ومرّوا غضاباً واستخفُّوا به ، وقالوا بياس :

« قد أضاع الرشاد في ملعب الجن فيـــا بؤسه ، أُصيب بمسٍّ »
« طالما خاطب العواطف في الليل وناجى الأموات في غير رمس »
« طالما رافق الظلام الى الغـاب ونادى الارواح من كل جنس »
« طالما حدَّث الشياطين في الوادي، وغنّـى مع الرياح بجَرس »
« انه ساحرٌ ، تعلـّمه السحرَ الشياطينُ ، كل مطلع شمس »
« فابعدوا الـكافر الخبيث عن الهيكل إنَّ الخبيث منبعُ رجس »
« اطردوه ، ولا تُصيخوا اليـه فهو روح شرِّيرة ، ذات نحس »

* * *

هكذا قـال شاعرٌ ، فيلسوف ، عـاش في شعبه الغبيِّ بتعْـس
جَهِلَ الناسُ روحَه ، وأغانيها فساموا شعورَه سَوْمَ بخس
فهو في مذهب الحيـــاة نبيٌّ وهو في شعبه مُصابٌ بمسٍّ
هكذا قال ، ثم سار الى الغـاب ، ليحيا حيـــاة شعر وقُدس
وبعيداً .. هناك .. في معبد الغاب الذي لا يظلـُّه أي بؤس
في ظلال الصنوبر الحلو، والزيتون يقضي الحيـاة : حَرساً بحرس
في الصباح الجميل،يشدو مع الطير، ويمشي في نشوة المتحسِّي
نافخـاً نايَـه ، حواليه ، تهتزُّ ورود الربيـع من كل فنس
شَعره مُرسَل ، تداعبـه الريح على منكبيه مثـــل الدمقس
والطيور الطراب تشدو حواليه وتلغو في الدوح ، من كل جنس
وتراه عند الأصيل، لدى الجدول، يرنو للطائر المتحسِّي
او يغني بين الصنوبر ، او يرنو الى سُدفة الظلام الممسي

فاذا أقبل الظلام ، وأمستْ ظلمات الوجود في الارض تُغسي[1]
كان في كوخه الجميل ، مقيماً يسأل الكون في خشوع وهمس
عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟ وصميم الوجود ، أيَّان يُرسي ؟
وأريجِ الورود في كل وادٍ ونشيد الطيور ، حين تمسِّي
وهزيم الرياح ، في كل فجٍّ ورسوم الحيـاة من أمس أمس
وأغـــاني الرعاة أين يواريهـا سكونُ الفضا ، وأيَّان تمسي ؟؟

* * *

هكذا يصرف الحيـاة ، ويُفني حلقات السنين : حَرْساً بحرس
يا لها من معيشة في صميم الغاب تُضحي بين الطيور وتمسي !
يا لها من معيشة ، لم تدنِّسْها نفوس الورى بخبث ورِجس
يا لها من معيشة ، هي في الكون حيـــاة غريبة ، ذات قُدس

٢٠ شعبان ١٣٤٨
٢١ كانون الثاني ١٩٣٠

(١) أغسى الليل : أظلم .

أنا أبكيك للحب

لستُ يا أمسي أبكيك لمجدٍ او لجاهْ
سلبته مني الدنيـــا ، وبزّتني رداه
فأنا أحتقر المجد وأوهام الحيـــاه

* * *

او لعُمْرٍ ، بلغت منه الليـالي منتهاه
وتلاشت في خضمّ الزمن الطاغي قواه
فأنا مـا زلت في فجر شبابي او ضحاه

* * *

لا ، ولا أبكيك يا أمسي ، اذا ما قلت : « آه »
لنعيم ، لم ينــلْ قلبي منه مشتهاه
فبنو الأيام في الدنيـا كما شاء الإله

* * *

إنما أبكيك للحب ، الذي كان بهاه
يملأ الدنيا فأنى سرتُ في الدنيا أراه
فاذا ما لاح فجرٌ ، كان في الفجر سناه
واذا غرَّد طيرٌ ، كان في الشدو صداه
واذا ما ضاع عطر ، كان في العطر شذاه
واذا ما رفَّ زهر ، كان في الزهر صِباه
فهو في الكون جمال ، يملأ الأفقَ ضياه
وتُوَشّي هذه الأكوان بالسحر رُؤاه
وهو في قلبي – الذي عانقه الفجر – إله !
عبقريُّ السحر ، مِمراحٌ وديعٌ في سماه
ينسج الأحلام في قلبي بأضواء الحياه
ويغنّيني ، فأنسى في مسرّات غِناه
كلَّ ما في الكون من حزن وأفراح ، عداه

٨ جمادى الاولى ١٣٥٠
٢١ سبتمبر ١٩٣١

في ظل وادي الموت

نحن نمشي ، وحولنـــا هاته الأكوا
ن تمشي ... لكن لأية غـايه ؟
نحن نشدو مع العصـافير للشمس ،
وهــذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختـــام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقـالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية ؟ »

* * *

وتغشّـى الضبــاب نفسي ، فصاحت
في مَلال مُرٍّ : « الى أين أمشيَ ؟ »
قلت : « سيري مع الحياة .. » فقالت :
« ما جنينا ، ترى ، من السير أمس ؟ »

فتهافتُ كالهشيم – على الارض –
وناديت : « أين يا قلب رفشي ؟ »
« هـــاتِه ، علني أخطُ ضريحي »
« في سكون الدجى وأدفن نفسي »

* * *

« هـــاته فالظلام حولي كثيف ... »
« وضباب الأسى مُنيخٌ عليّـا ... »
« وكؤوس الغرام أترعها الفجر ، »
« ولكن تحطمت في يديّا ... »
« والشباب الغرير ولّى الى الماضي »
« وخـــلّى النحيب في شفتيّا ، »
« هاته ، يا فؤاد إنا غريبـــان ، »
« نصوغ الحيـــاة فناً شجيّا ... »

* * *

« قد رقصنا مع الحياة طويلاً »
« وشدوْنا مع الشباب سنينا ... »
« وعدَوْنا مع الليـــالي حُفاةً .. »
« في شِعاب الحيـاة حتى دَمينا ... »
« وأكلنا التراب حتى ملِلنا ... »
« وشربنا الدموع . حتى روِينا ... »

« ونثرنا الأحلام والحب والآلام ... »
« واليأس ، والأسى ، حيث شينا ... »

* * *

« ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرتُ في الدنيا »
« بعيداً عن لهوها وغناها »
« في ظلام الفناء ، أدفن أيامي »
« ولا أستطيع حتى بكاها ؟ »
« وزهور الحياة تهوي ، بصمت »
« محزن ، مضجر ، على قدميّا »
« جفَّ سحر الحياة ، يا قلبيَ الباكي ، »
« فهيّا ، نجرِّب الموت .. هيّا ..! »

٢٨ ذو القعدة ١٣٥٠
٥ نيسان ١٩٣٢

نشيد الجبار

أو هكذا غنى بروميثيوس

ساعيش رغم الداء والأعـداءِ كالنسر فوق القمَّـة الشمَّـاءِ
أرنو الى الشمس المضيئة .. هازئاً بالسحب ، والامطار، والأنواء...
لا أرمق الظلَّ الكئيب.. ولا أرى مـا في قرار الهوَّة السوداء ...
وأسير في دنيا المشاعر ، حالماً ، غرِداً ـ وتلك سعادة الشعراء ـ
أصغي لموسيقى الحياة ، ووحيها وأُذيب روح الكون في إنشائي
وأصيخ للصوت الإلهيِّ ، الذي يُحيي بقلبي ميِّـتَ الأصداء

* * *

وأقول للقـدر الذي لا ينثني عن حرب آمـالي بكل بلاء :
« لا يطفىء اللهب المؤجّـج في دمي موج الأسى ، وعواصف الأرزاء »
« فاهدم فؤادي ما استطعت ، فانه سيكون مثل الصخرة الصماء »
« لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الاطفـال والضعفاء »

« ويعيش جباراً ، يحدّق دائماً … بالفجر .. بالفجر الجميل ، النائي »
« واملأ طريقي بالمخاوف، والدجى، … وزوابع الأشواك ، والحصباء »
« وانشر عليه الرُّعب، وانثر فوقه … رُجم الرّدى ، وصواعق البأساء »
« سأظل أمشي رغم ذلك ، عازفاً … قيثارتي ، مترنّماً بغنائي »
« أمشي بروح حالمٍ ، متوهّجٍ … في ظلمة الآلام والأدواء »
« النور في قلبي وبين جوانحي … فعلامَ أخشى السيرَ في الظلماء ! »
« إني أنا النّاي الذي لا تنتهي … أنغامه ، ما دام في الأحياء »
« وأنا الخضمُّ الرحب، ليس تزيده … إلا حياةً سطوةُ الأنواء »
« أما اذا خمدت حياتي ، وانقضى … عُمري ، وأخرست المنيةُ نائي »
« وخبا لهيب الكون في قلبي الذي … قد عاش مثل الشعلة الحمراء »
« فانا السعيد بانني متحوّلٌ … عن عالم الآثام ، والبغضاء »
« لأذوب في فجر السماء السرمديِّ … وأرتوي من منهل الأضواء »

* * *

وأقول للجمع الذين تجشّموا … هدمي وودُّوا لو يخرُّ بنائي
ورأوْا على الأشواك ظلّي هامداً … فتخيّلوا أنّي قضيتُ ذَمائي
وغدَوْا يشبّون اللهيبَ بكلِّ ما … وجدوا .. ليشووا فوقه أشلائي
ومضوْا يمدّون الخوان ، ليأكلوا … لحمي ، ويرتشفوا عليه دمائي
إني أقول لهم ـ ووجهي مشرقٌ … وعلى شفاهي بسمة استهزاء ـ :
« إن المعاول لا تهدُّ مناكبي … والنار لا تأتي على أعضائي »
«فارموا الى النار الحشائش، والعبوا … يا معشر الاطفال تحت سمائي »

« وإذا تمرّدت العواصف، وانتشى بالهول قلب القبّة الزرقاء »
« ورأيتموني طائراً ، مترنّماً فوق الزوابع ، في الفضاء النائي »
« فارموا على ظلّي الحجارة، واختفوا خوف الرياح الهُوج والأنواء . . »
« وهناك، في أمن البيوت، تطارحوا غَثّ الحديث ، وميِّت الآراء »
« وترنّموا ـ ما شئتمُ ـ بشتائمي وتجاهروا ـ ما شئتمُ ـ بعِدائي »
« أما أنا فأجيبكم من فوقكم والشمس والشفق الجميل إزائي »
« من جاش بالوحي المقدّس قلبهُ لم يحتفل بحجارة الفلتاء »

٢٧ شعبان ١٣٥٢
١٥ كانون أول ١٩٣٣

الجنة الضائعة

كم من عهود عـذبة في عَدوَة الوادي النضير
فضِّية الاسحار مذْهبــةَ الأصائل والبكور
كانت أرقّ من الزهور ، ومن أغـاريد الطيور
وألذّ من سحر الصبـا في بسمةِ الطفل الغرير
قضّيتها ومعي الحبيبــة لا رقيب ولا نذير
إلا الطفولةَ حولنـا تلهو مع الحبِّ الصغير
أيام كانت للحيـــاة حلاوة الروض المطير
وطهـارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيامَ لم تعرف من الدنيـــا سوى مرَح السرور
وتتبُّع النحل الأنيق ، وقطف تيجـان الزهور
وتسلُّق الجبـــل المكلّل بالصنوبر والصخور
وبنـاء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور

مسقوفةً بالورد ، والاعشاب ، والورق النضير
نبني ، فتهدمها الرياح ، فلا نضجُّ ولا نثور
ونعود نضحك للمروج ، وللزنابق ، والغـــدير
ونخاطب الأصداء ، وهي ترفُّ في الوادي المنير
ونعيـــد أغنية السواقي ، وهي تلغو بالخرير
ونظلُّ نركض خلف أسراب الفراش المستطير
ونمرّ مـا بين المروج الخضر ، في سكر الشعور
نشدو ، ونرقص – كالبلابل – للحياة ، وللحبور
ونظلّ ننثر للفضـاء الرحب ، والنهر الكبير
مـا في فؤادَينا من الاحلام ، او حلو الغرور
ونشيد في الأُفق المخضّب من أمانينـــا قصور
أزهى من الشفق الجميل ، وورونق المرج الخضير
وأجلَّ من هـــذا الوجود ، وكل أمجاد الدهور
أبداً ، تذلِّلها الحيـاة بكلِّ أنواع السرور
وتبثُّ فينا من مراح الكون ما يغوي الوقور
فنسير ، ننشد لهونا المعبود – في كل الامور
ونظل نعبث بالجليـل من الوجود ، وبالحقير :
– بالسائل الأعمى وبالمعتوه ، والشيخ الكبير
بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعـــة ، بالحمير
بالعشب ، بالفنن المنوَّر ، بالسنابل ، بالسفير

بالرمل ، بالصخر المحطّم ، بالجداول ، بالغدير
واللهوُ ، والعبث البريء الحلو ، مطمحنا الاخير
ونظل نقفز ، او نثرثر ، او نغني ، او ندور
لا نسأم اللهو الجميل ، وليس يدركنا الفتور
فكأننا نحيا باعصاب من المرح المثير
وكأننا نمشي باقدام مجنّحة ، تطير
أيام كنا لبَّ هذا الكون ، والباقي قشور
أيام تفرش سُبلنا الدنيا باوراق الزهور
وتمرّ أيام الحياة بنا ، كأسراب الطيور
بيضاء لاعبةً ، مغرّدة ، مجنّحة بنور
وترفرف الافراح فوق رؤوسنا ، أنّى نسير

* * *

آهٍ ! توارى فجريَ القدسيُّ في ليل الدهور
وفنى ، كما يفنى النشيد الحلو في صمت الأثير
أوّاه ، قد ضاعت عليَّ سعادةُ القلب الغرير
وبقيتُ في وادي الزمان الجهم أدأب في المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبيَ الدامي الكسير
وأرى الأباطيل الكثيرة ، والمآثم ، والشرور
وتصادُمَ الأهواء بالأهواء في كل الامور
ومَذلّةَ الحق الضعيف ، وعزّة الظلم القدير !
وأرى ابنَ آدمَ سائراً في رحلة العمر القصير

ما بين أهوال الوجود ، وتحت أعبـــاء الضمير
متسلّقاً جبلَ الحيـاة الوعرَ ، كالشيخ الضرير
دامي الأكُفّ ، ممزّقَ الأقدام ، مغبرّ الشعور
مترنّح الخطوات مـــا بين المزالق والصخور
هالته أشباح الظلام ، وراعه صوت القبور
ودويُّ إعصار الأسى ، والموت ، في تلك الوعور

* * *

ماذا جنيت من الحيـاة ، ومن تجاريب الدهور
غير النـدامة والأسى ، والياس والدمع الغزير ؟
هذا حَصادي من حقول العـالم الرحب الخطير
هـذا حصادي كلُّه ، في يقظة العهـــد الاخير

* * *

قد كنتُ في زمن الطفولة ، والسذاجة ، والطهور
أحيا كما تحيـــا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نحفل ، الدنيـا تدور بأهلها ، او لا تدور
واليوم أحيـا مرهق الاعصاب ، مشبوب الشعور
متأجّج الاحساس ، أحفـل بالعظيم ، وبالحقير
تمشي على قلبي الحيـاة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما أشقى المصير !

١٢ رمضان ١٣٥١
٩ كانون الثاني ١٩٣٣

ارادة الحياة

اذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدَّ ان يستجيب القدر
ولا بدَّ لليل ان ينجلي ولا بدَّ للقيد ان ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخَّر في جوِّها ، واندثر
فويل لمن لم تشُقه الحياة من صفعة العدَم المنتصر
كذلك قالت ليَ الكائنات وحدَّثني روحُها المستتر

* * *

ودمدمت الريح بين الفِجاج وفوق الجبال وتحت الشجر :
« اذا ما طمحتُ الى غاية ركبتُ المنى ،ونسيت الحذر »
« ولم أتجنب وعورَ الشعاب ولا كُبَّة اللهب المستعر »
« ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبدَ الدهر بين الحفر »
فعجَّت بقلبي دماء الشباب وضجَّت بصدري رياح أُخَر
وأطرقت أصغي لقصف الرعود وعزف الرياح ، ووقع المطر

* * *

وقالت ليَ الارض ـ لما سألت : « أيا أمّ هل تكرهين البشر؟ » :
« أبارك في الناس اهل الطموح ، ومن يستلذّ ركوب الخطر »
« وألعن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش ، عيشَ الحجر »
« هو الكون حيٌّ يحب الحيـاة ، ويحتقر الميت ، مهما كبُـر »
« فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر »
« ولولا أمومة قلبي الرؤوم ، لَما ضمّـت الميتَ تلك الحفر »
« فويل لمن لم تشـُقه الحيـاة ، من لعنة العدم المنتصر ! »

* * *

وفي ليلة من ليـــالي الخريف ، مثقّـلةٍ بالأسى والضجر
سكرتُ بها من ضياء النجوم ، وغنّـيت للحزن حتى سكر
سألت الدجى : هل تعيد الحياة لما أذبلته ، ربيـعَ العمر ؟
فلم تتكلم شفـاه الظلام ، ولم تترنّـم عـذارى السّحر
وقال ليَ الغـــاب في رقّة محببة مثل خفْق الوتر :
« يجيء الشتاء ، شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر »
« فينطفىء السحر ،سحر الغصون،وسحر الزهور،وسحر الثمر »
« وسحرُ السماء الشجيّ الوديع، وسحر المروج الشهيّ العطِر »
« وتهوي الغصون وأوراقها ، وأزهار عهد حبيب نضِرِ »
« وتلهو بها الريح في كل واد ، ويدفنها السيل أنّى عبر »
« ويفنى الجميـع كحلم بديـع ، تألّق في مهجـة واندثر »
« وتبقى البذور ، التي حُمـّلت ذخيرةَ عمر جميل ، غبَـر »

« وذكرى فصول ، ورؤيا حياة ، وأشباحَ دنيا تلاشت زُمَر »
« معانقةً ـ وهي تحت الضباب، وتحت الثلوج ، وتحت المدَر ـ »
« لِطَيف الحياة الذي لا يُمَلّ، وقلب الربيع الشذيِّ الخضِر »
« وحالمةً بأغاني الطيور ، وعطر الزهور ، وطعم الثمر »

* * *

« ويمشي الزمان، فتنمو صروف، وتذوي صروف، وتحيا أُخر »
« وتصبح أحلامها يقظةً ، موشّحة بغموض السَّحر »
« تُسائل : أين ضباب الصباح ، وسحرُ المساء ، وضوء القمر؟ »
« وأسراب ذاك الفراش الأنيق ، ونحل يغني ، وغيم يمر ؟ »
« وأين الأشعة والكائنات ؟ وأين الحياة التي أنتظر ؟ »
« ظمئتُ الى النور فوق الغصون! ظمئت الى الظل تحت الشجر! »
« ظمئت الى النبع بين المروج ، يغني ويرقص فوق الزَهر ! »
« ظمئت الى نغمات الطيور ، وهمس النسيم ، ولحن المطر ! »
« ظمئت الى الكون ! أين الوجود، وأنّى أرى العالم المنتظر؟ »
« هو الكون، خلف سبات الجمود، وفي أُفق اليقظات الكُبَر »

* * *

« وما هو إلا كخفق الجناح ، حتى نما شوقُها وانتصر »
« فصدّعت الارضَ من فوقها، وأبصرت الكون عذب الصور »
« وجاء الربيع بأنغامه ، وأحلامه ، وصباه العطِر »
« وقبّلها قُبلاً في الشفاه ، تعيد الشباب الذي قد غبَر »

« وقال لها : قد مُنحتِ الحياة، وخُلّدتِ في نسلكِ المدَّخَر »
« وباركَكِ النور ، فاستقبلي شباب الحياة وخصب العمر »
« ومن تعبد النورَ أحلامُه ، يباركه النور أنّى ظهر »
« اليكِ الفضاءَ ، اليك الضياءَ ، اليك الثرى الحالمَ المزدهر ! »
« اليك الجمال الذي لا يَبيد ! اليك الوجود الرحيب النضر ! »
« فميدي – كما شئت – فوق الحقول ، بحلو الثمار وغضّ الزَهر »
« وناجي النسيم ، وناجي الغيوم ، وناجي النجوم ، وناجي القمر »
« وناجي الحياةَ وأشواقها ، وفتنة هذا الوجود الأغر »

* * *

« وشفّ الدجى عن جمال عميق، يشبُّ الخيال، ويذكي الفِكَر »
« ومُدَّ على الكون سحر غريب ، يصرّفه ساحر مقتدر »
« وضاءت شموع النجوم الوِضاء، وضاع البخور، بخور الزَهر »
« ورفرف روح غريب الجمال ، باجنحة من ضياء القمر »
« ورنَّ نشيد الحياة المقدس ، في هيكل حالم قد سُحِر »
« وأعلنَ في الكون : أن الطموح لهيب الحياة ، وروح الظفر »
« اذا طمحت للحياة النفوس ، فلا بدَّ ان يستجيب القدر ! »

٢٦ جمادى الاولى ١٣٥٢
١٦ أيلول ١٩٣٣

قلب الام

يا أيها الطفل الذي قد كان كاللحن الجميلْ
والوردة البيضاء ، تعبق في غيـابات الأصيل
يا أيها الطفل الذي قد كان في هذا الوجود ،
فرِحاً ، يناجي فتنة الدنيـا بمعسول النشيد
هـا أنت ذا أطبقتْ جفنيك أحلامُ المنون
وتطايرت زُمَر الملائك حول مضجعكَ الأمين
ومضت بروحك للسماء عرائس النور الحبيب
يحملنَ تيجـاناً مذهَّبةً ، من الزهر الغريب
ها انت ذا قد جلّلتك سكينة الأبد الكبير
وبكتك هاتيك القلوب ، وضمّك القبر الصغير
وتفرّق النـــاس الذين الى المقابر شيّعوك
ونسوك من دنيامُ ، حتى كانــ لم يعرفوك
شغلتهمُ عنك الحياة ،.وحرب هذي الكائنات

إنَّ الحياة ـ وقد قضيتَ قُبيل معرفة الحياة ـ
بحرٌ ، قرارته الردى ، ونشيد لجَّته شَكاة
وعلى شواطئه القلوب تئنّ ، داميةً عُراة
بحرٌ ، تجيش به العواصف في العشية والغداة
وتُظلُّه سُحب الظلام ، فلا سكونَ ولا إياة
نسيَتكَ أمواج البحيرة ، والنجوم اللامعه
والبلبل الشادي ، وهاتيك المروج الشاسعه
وجداول الوادي النضير برقصها وخريرها
ومسالك الجبل الصغير بعشبها وزهورها
حتى الرفاق .. فانهم لبثوا مدًى يتساءلون
في حيرة مشبوبة : « أين اختفى هذا الامين ؟ »
لكنهم علموا بأنك في الليالي الداجيه
حملتكَ غيلان الظلام الى الجبال النائيه
فنسوك مثل الناس.. وانصرفوا الى اللهو الجميل
بين الخمائل ، والجداول ، والروابي ، والسهول
ونسوا وداعة وجهك الهادي ، ومنظرك الوسيم
ونسوا تغنّيك الجميل بصوتك الحلو ، الرخيم
ومضَوا الى المرج البهيج ، يطاردون طيورهُ
ويزحزحون صخوره ، ويعابثون زهوره
ويشيّدون من الرمال البيض، والحصَب النضير

غرَفاً ، وأكواخاً تكلّلها الحشائش والزهور
وينضّدون من الربى ، بين التضاحك والحبور
طاقاتِ وردٍ ، آبدٍ ، تُزرى بأوراد القصور
يلقونهـــا في النهر ، قرباناً لآلهة السرور
فتسير في التيـار ، راقصة على نغم الخرير
كلُّ نسوك ، ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
والدهر يدفن في ظلام الموت ، حتى الذكريات
إلا فؤاداً ، ظلَّ يخفق في الوجود الى لقاك
ويودّ لو بذل الحيـاة الى المنية ، وافتداك
فاذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاك
يصغي لصوتك في الوجود ، ولا يرى إلا بهاك
يصغي لنغمتك الجميـــلة في خرير الساقيه
في رنة المزمار ، في لغو الطيور الشاديه
في ضجة البحر المجلجل ، في هدير العـاصفه
في لجّـة الغابات ، في صوت الرعود القـاصفه
في نُغيـة الحمل الوديع ، وفي أناشيد الرعاة
بين المروج الخضر والسفح المجلّل بالنبـات
في آهة الشاكي ، وضوضاء الجموع الصاخبه
في شهقة البـاكي يؤجّجها نُواح النـــادبه
في كل أصوات الوجود : طَروبها وكئيبها

ورخيمها ، وعنيفها ، وبغيضها ، وحبيبها
ويراك في صوَر الطبيعة : حلوها ، ودميمها
وحزينها وبهيجها ، وحقيرها وعظيمها
في رقّة الفجر الوديع ، وفي الليالي الحالمه
في فتنة الشفق البديع ، وفي النجوم الباسمه
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع ، وفي تهاويل الغيوم
في لمعة البرق الخفوق ، وفي هُويّ الصاعقه
في ذلّة الوادي ، وفي كِبر الجبال الشاهقه
في مشهد الغاب الكئيب ، وفي الورود[1] العاويه
في ظلمة الليل الحزين ، وفي الكهوف العاريه
أعرفتَ هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب أمّك ، أمك السكرى بأحزان الوجود
هو ذلك القلب الذي سيعيش كالشادي الضرير
يشدو بشكوى حزنه الداجي الى النفَس الاخير
لا ربّة النسيان ترحم حزنه وترى شقاه
كلا ! ولا الايام تُبلي في أناملها أساه
إلا اذا ضفرت له الأقدار إكليل الجنون
وغدا شقياً ضاحكاً ، تلهو بمرآه السنون

(١) الورود : جمع ورد : الأسد .

هو ذلك القلب الذي مهما تقلّبت الحيـــاة
وتدفّعَ الزمن المدمدم في شعـاب الـكائنات
وتغنّت الدنيـا ، وغرّد بلبل الغاب الجميل
سيظلُّ يعبد ذكرياتكِ : لا يَمَلُّ ، ولا يميل
كالارض : تمشي فوق تربتها المسرّة ، والشباب
والليل، والفجر المجنّح، والعواصف، والسحاب
والُحبُّ تنبت في مواطنه الشقائق ، والورود
والموت تُحفر ــ أينما يخطو ــ المقابر واللحود
وتمرّ بين فجاجها اللذّات ، حـــالمة ، تميد
سكرى.. وأشواق الورى ترنو الى الأفق البعيد..
وتظلّ ترقص للأسى ، للّهو ، أشباح الدهور
حتى يواريَهـا ضباب الموت في وادي الدثور
وتظلّ تُورق ، ثم تُزهر ، ثم ينشرها الصباح
للموت ، للشوك الممزّق ، للجداول ، للرياح
بسمات ثَغرٍ ، حالم ، يفترُّ في سهو السرور
وورود روض ، باسم ، يصغي لألحان الطيور
وتظلّ تخفق ، ثم تشدو ، ثم يطويها التراب
قُبَلٌ ، وأطيارٌ ، تغرّد للحياة ، وللشباب
وتظلّ تمشي في جوار الموت أفراح الحياة !..

ويغرّد الشحرور ما بين الجماجم والرّفات
والارض حالمة : تغني بين أسراب النجوم
أنشودة الماضي البعيد ، وسورة الأزل القديم ...

٥ شعبان ١٣٥٠
١٦ كانون أول ١٩٣١

زوبعة في ظلام

لو كانت الايام في قبضتي أذريتها للريح ، مثل الرمال
وقلت : « يا ريح ، بها فاذهبي وبدِّديها في سحيق الجبال »
« بل في فجاج الموت.. في عالم لا يرقص النور به والظلال.. »

* * *

لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النار ، نار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهذا الورى وذلك الأفق، وتلك النجوم؟!
النـار أولى بعبيد الأسى ، ومسرح الموت، وعشّ الهموم

* * *

يا أيها الماضي الذي قد قضى وضمَّه الموت ، وليل الأبد !
يا حاضر الناس الذي لم يَزُل يا أيها الآتي الذي لم يلد !
سخافةٌ دنيــاكم هـذه تائهة في ظلمة لا تُحَد ..!

٧ رمضان ١٣٥٢
٢٤ كانون أول ١٩٣٣

الشابي في سطور

- هو شاعر تونس الكبير .
- وُلد في مارس سنة ١٩٠٩ ببلدة « الشابية » احدى ضواحي توزر.
- تلقّى تعليمه الأولي في المدارس القرآنية .
- أتمّ حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة .
- التحق بالجامعة الزيتونية ونال شهادة التطويع سنة ١٩٢٧ .
- تخرّج من كلية الحقوق التونسية سنة ١٩٣٠ .
- توفي في اليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٩٣٤ بمدينة تونس ، ودُفن بمسقط رأسه « الشابية » .

الفهرس